عزيز نيسين

محمود ونيكَار

« طاهر وزهرة »



تر

الوطنية الجديدة

محمود ونیکَار

* محمود ونيكَار . طاهر وزهرة «قصص»
* تأليف: عزيز نيسين
* ترجمة: محمد مولود فاقي
* الطبعة الأولى ٢٠٠٢

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**
سورية - دمشق - ص.ب: ٢٢٢٠٥
هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ - ٤٤١٨١٧٢
* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع

عزيز نيسين

محمود ونيگار

« طاهر وزهرة »

« قصص »

ترجمة محمد مولود فاقي

عنوان الكتاب بالتركية

AZIZ NESIN

MAHMUT ILE NIGAR

١
محمود ونيكَار

اكتب ما سأقوله لك أيها السيد الصحفي. اكتب حتى يطلّع الناس على أحوالنا ويأخذوا منها العبر. اسمي محمود... واسمها نيكار اكتب «محمود ونيكار».. حتى يقرأ الناس ويبكوا.. وليبكوا ويبكوا.. ويقرأوا. ما عانينا منه.. «كرم وأصلي» «يوسف وزليخة» «فرحات وشيرين» «طاهر وزهرة».. وكل ما عانوه لم يكن سوى همسات مقابل قصة غرامنا (الأسماء الثنائية المذكورة هي أسماء مشهورة بقصص الحب في تركيا). المترجم.

المغامرة الحقيقية هي قصة حبنا.. وقصص حبهم كلها لا تُعتبر شيئاً.

لقد امتلك أولاد الحرام البلد بما فيه.. وحازوا على سندات بملكيتها حفاظاً على ماء وجه الديمقراطية.. أما نحن فلم نستطع حتى أن نسجل امرأة باسمنا لنبني عشنا الجميل.. على سنة الله ورسوله.. اشعل سيجارة من فضلك واسمع جيداً.. عائلتنا من أشراف «أق سو».. جارنا يدعى «حمزة أفندي».. وحمزة أفندي هذا عنده بنت تدعى «نيكار».. وبما أن هذا العصفور طار من يدنا فسأروي لك القصة على حقيقتها.. نيكار واحدة.. لا مثيل لها أبداً.. ولم تلد الأمهات مثلها في هذه الدنيا ولن يلدن أبداً.. إنها نيكار الفريدة من نوعها.. لو بحثت عن مثيل لها في سبع دول.. فلن تجد أبداً.

فزوجة شاهين العجمي التي تعتبر ملكة جمال الكون والتي زينوا

بصورها جدار مقهى بيليبك عثمان،لا تستحق أن تصب الماء على يد نيكاري من حيث الجمال. ولا أن تصير تراباً تحت قدميها. إذا ما رأيتها عن بعد رفَّ قلبك كالعصفور،وأوشك أن يخرج من فمك.. شعرها الناعم الطويل يداعب عقبيها. و كل شعرة من رموش عينيها سهم ينفذ في قلبي، حاجباها قوسا نشاب.. واي نيكاري الجميلة واي..؟

قبل ولادتها عجنتها أمها بالسمن والعسل.. يفوح العطر من فمها الصغير المزيَّن بأسنان لؤلؤية. قدَّ خصرها من خيزران، وعقبيها كأعقاب الحمام.. بشرتها وردية تنضح بأطيب العطور.. تمشي الخيلاء.. عيناعا.. كعيون الغزال كلماتها لذيذة.. واي يا نيكاري... واااااي...

أصابعها صارت ماءً تسيل.. يغفو على صدرها زوج من طيور الحب. «عاشق ومعشوق».. واي يا نيكاري.. واي.. هذه الـ نيكار.. لا تحسبها تمشي بل تدرج كالحجل.. هل أنت حجلة حنون،أم جنية،أم حورية.. أم ماذا؟ لقد صعقتني يا ابنة اليزيدي.

لساني يعجز عن وصفها لكَ يا سيدي.. نيكار كوتني بحبها.. أحرقتني،وبدأ الدخان يتصاعد مني.. خارت قواي وتناثرت أشلائي كحبات عنقود عفن . قلبي يحترق ويحترق.. وبدأت الدماء تتفجر من عيني.

وزاد في حرقتي أن قصتي هذه صارت على لسان جميع أهل «أق سو». وصيتي تضمنت أمنيتي،أن أحترق حتى تتحول أشلائي رماداً. رسمت عليها عصفوراً وقلباً يحترق تحته. وثقبتُ هذه الورقة بنار سيجارتي.. كيف تفهم نيكار.. كيف أحترق من أجلها.. وكيف اكتوى قلبي بنار فراقها. وضمنتها هذه الأبيات:

«هل نار أنت أم نيكار؟

قولي بربك وأجيبي هل أنت حبيبة؟

أيحترق من نارك قلبي وبشعلة حبك تكوني
هل من أجلي تحترقين؟ قولي بربك نيكار.

وضعت الورقة مع زجاجة طيب في منديل حريري ولففتها.. وأرسلتها مع إمرأة تدعى «المرأة الوردية» عند المساء جاء جوابها.

بنت اليزيدي كتبت شعراً.. التوبة لله لقد غلبتني.

«أنا لست ناراً بل نيكار
وقراري هذا خير قرار
وكما تحترق من أجلي
أحترق من أجلك أيضاً
إن قدِّر لي ما أرغبه
فستصبح أملي ورجائي
من دونك لا أرضى رجلاً
وحرام إن خنت العهد
أنت محمودي الوحيد»

غمرتني الفرحة.. أسرعت صوب الجبال.. ألاطم الصخور.. حتى أن رصاص الشرطة لم يستطع اللحاق بي.. همت في الجبال والسهول.. أقرأ أشعارها.. أبكي وأضحك. وأقول يا بنت الحرام من أين تعلمت هذه الكلمات؟ سألتهم لسانك الذي يتفوه بـ محمودي».

واستمرت مراسلاتنا فترة من الزمن شعرت بعدها أن النار تملأ مدخنة قلبي.

ذهبت أمي تطلب نيكار من أمها.. وأبي تحدث مع أبيها.. وبما أنهما يحبان ابنتهما كثيراً.. لم يعلقا بشيئ وتظاهرا بالموافقة على أن يكون

الفرح بعد موسم الحصاد. أقمنا حفلة خطوبة رائعة. ناهيك عن الأعداء.. فحتى الأصدقاء.. عضوا أصابعهم وحيرهم الأمر. بعد الخطوبة ذهب أبي إلى المقهى وقال:

ـ هذه الخطبة أفلستنا.. جعلتنا على الحصيرة.. ليكن.. إنها كنتنا وهي تستحق أكثر من ذلك... ولوجه الله.

سيكون عرسنا في العام المقبل.. مضى عام وجاء موسم الحصاد وصارت نيكار تنقل المحصول دون موافقتي.. وبالصحة والعافية أنهينا جني القمح. وأصبح كل شئ جاهزاً. وقررنا أن ننصب خيام العرس بعد حين وإذا بوالد نيكار يقول:

ـ أنا لا أزوج ابنتي من ابن ذاك الرجل.

ـ لماذا؟

ـ أنا لا أزوج ابنتي من شخص حقير ينتمي إلى حزب معارض لحزبنا!

يا عمي.. لا تعملها أرجوك يا عمي.. غير ممكن يعني هذا الأمر لن يتم

أيعجبك هذا العمل يا سيدي والله حتى ذلك اليوم لم يكن أحد في منطقتنا يعرف كيف تكون المعارضة أو التأييد.. إلا وقت زواجنا.. وباسم الديمقراطية.. وإذا بمجتمعنا ينقسم إلى معسكرين.. ولسوء طالعنا كنا نقف في طرف ووالد نيكار في الطرف الآخر.

ولأن والدي كان صعب المراس.. صرخ قائلاً:

ـ أنا لا أسمح لابنة من ذلك الحزب بدخول منزلي.. على أنها كنتي.

وكأن هذه الديمقراطية لم تجد غير هذا الوقت لتدخل بلدنا.

فلو تزوجنا قبل وجودها.. لكان الأمر قد انتهى.. ولك ديمقراطية.. ولك ديمقراطية.. من أين أتيت؟ ما كنا نعرف الديمقراطية على مر السنين

الماضية،ما كنا نعرفها.. لم تكن موجودة. انتظرتِ.. انتظرتِ.. هل تخرب الدنيا لو أظهرتِ انسانيتكِ وتأخرَ وجودكِ إلى ما بعد العرس.

أكاد أحترق وكذلك نيكار.. فحيثما أرى هذه الفتاة وحيدة على البيدر أو في الحقل أمسكها وأقول لها:

- ولك بنت ماذا سيحل بنا؟

تقول: لا أعرف.

- كيف لا تعرفين.. من كثرة اشتياقنا وحبنا،سنحترق ونتحول إلى رماد.

هل أخطفك؟ وكنت أريد أن أسمع منها شيئاً أي شيئ.

وإذ بها تقول «أنا لا أخرج عن طاعة أبي»

- ماذا؟ أما كنت تتحرقين شوقاً لي؟

- نعم أتحرق من أجلك.

كانت نيكار تذوب كشمعة تحترق يوماً بعد يوم. وأنا أحوم حول نورها كالمجنون.. ولك بابا.. ولك بابا.. ألم تجد وقتاً غير هذا حتى تقف مع المعارضة؟ أمي ترجوه من طرف وأنا من طرف آخر ولم نستطع إقناعه.

- لا تعملها يا أبي.. ابتعد عن هذا الحزب..

- لا..

- يا زوجي العزيز.. اترك حزبك مؤقتاً أو غيره.. وبعد أن ننتهي من زواج ولدنا ترجع إلى حزبك القديم.

وكذلك والد نيكار.. لم يعر إذناً صاغية لأحد.

-ولك أفندي.. غيِّر هذا الحزب لبضع أيام فقط.

هل أنتم مجانين.. هل أغير الحزب وأخرب بيتي.. هل يغير المرء حزبه

في الوقت الذي هو بأمس الحاجة للحصول على قرض من المصرف.

العنزة الحقيقية تشفق علينا وتعود إلى الطريق الصحيح، أما والد نيكار فقد كان أكثر عناداً من العنزة. في أحد الأيام قطعت عليه الطريق ووضعت السكين على صدري مهدداً فقال:

ـ آمان دخيل الله يا ابني.. تمهل قليلاً.. لا أحد يعلم شيئاً عن مصير حزبنا.

اعتبر أن الفتاة لك مهما كلف الأمر كأنها في كنفك فقط أعطني فرصة إلى ما بعد الانتخابات فإن خسر حزبنا تكون البنت لك دون أي مماطلة.

ـ وهل يخسر الحزب؟

ـ سنجعله يخسر بعون الله. ولكن لا تقل هذا الكلام لأحد.

ثلاث سنوات يجب أن تنقضي حتى يحين موعد الانتخابات ووالد نيكار ووالدي يعملان جاهدين على إسقاط ذلك الحزب.. أما أنا ونيكار بقينا ننتظر تلك الثلاث سنوات على أحر من الجمر.

ولما جرت الانتخابات وسقط الحزب.. غيَّر حمزة أفندي حزبه وأنهينا نحن أيضاً موسم الحصاد وكما وعدنا قلت له:

ـ أعطني البنت..

ـ لن أعطيك إياها.

ـ لماذا؟

ـ أنا لا أعطي بنتي لابن رجل حقير ومن حزب معارض.

أما في الحزب الآخر فقد خدعوا والدي لأنهم كانوا سيكلفونه بأمانة الفرقة. وانتسب والدي إلى حزب آخر وحمزة أفندي انتقل إلى حزب والدي القديم.

ولك بابا.. إذا كنت ستنتسب إلى حزب آخر فلماذا لم تنتسب قبل الانتخابات؟

والله أوشك أن أصاب بمرض السل ماذا سنفعل الآن؟

ولك حمزة أفندي لو غيرت حزبك قبل الانتخابات ماذا كان سيحصل يعني؟

كانت نيكار تبكي وأنا أبكي.. ووالدي لا زال مصراً على عناده.

ـ اقطع أملك من تلك «القحبة» التي يسمونها «نيكار» إذا سمعت أنك تراسلها.. التوبة.. سأتبرأ منك حتى يوم القيامة.

أما حمزة أفندي فقد كان أشد عناداً من أبي. فقد قال.

ـ إذا قالت نيكار لابن ذلك الواطي المعارض.. خطيبي.. قسماً سيكون آخر يوم في حياتها.

نيكار تتألم من جهة وأنا أتلظى على الجمر من جهة أخرى.. مرَّ عامان آخران «الحب لا يعرف الأنظمة» هكذا يقولون: حقاً إنه لا يفهم ولا يسمع. نيكار أرسلت خبراً:

ـ آمان... يا محمودي.. يا محمودي... تعالَ واخطفني.

لم أعد أحتمل لعبة الديمقراطية هذه

حسناً؟ اتفقت مع ثلاثة من أصدقائي على أن نخطف نيكار من فراشها.. وهي نائمة على السطح.

حملنا بما فيه الكفاية من الأسلحة وركبنا خيولنا حتى وصلنا إلى الباب فناديتها بصوت خافت كي لا يسمعنا أحد: هيا يا بنت.

ـ لن أذهب.

ـ ألم تقولي تعال واخطفني، هل تراجعت عن كلامك؟

ـ آمان يا محمودي البطل.. أنا لم أتراجع.. والدي هو الذي تراجع.

بالأمس قال لأمي: بأن الحزب لن يوافق على إعطائه قرضاً ليشتري «جراراً» وقال بأنه سيترك الحزب. لننتظر بضعة أيام أخرى.

آمان.. انتظر شهرين.. إذا أعطانا الله الصحة والعافية.

في اليوم التالي.. ترك حمزة أفندي حزبه وانتقل إلى حزب والدي. ولك آمان.. الآن أمسكنا بالاثنين في حزب واحد.. يجب ألا نضيع الوقت.. لنقم بتجهيزات العرس.

قال والدي:

ـ أنا شخصياً لا أدخل ابنة ذلك المعارض كنةً إلى بيتي.

ـ آمان يا بابا.. حمزة أفندي أيضاً صار من حزبنا.

ـ أي حزب تقصد..؟ لقد ترك ذلك الحزب بالأمس.

لنذهب إذن إلى حمزة أفندي.

ـ آمان يا حمزة أفندي.. أنت تعرف كل شيئ.

ـ أنا ما عندي بنت أعطيها لابن ذلك المعارض الواطي.

حتى العجائز صاروا يشفقون علينا.. يذهبون إلى أبي.. لا.. لا أوافق مطلقاً..

ـ لا تعملها يا أبي.. ما علاقة الحزب بهذا الأمر.. ليتزوج محمود مع نيكار.. ما علاقة الحزب؟

ـ هذا جوهر الحرية.. أنتم لا تفهمون. إذا تزوج ابني من ابنة معارض.. يفصلونني من الحزب. حتى السلام عليهم محرَّم علينا ما بالك بأخذ ابنته.

ـ ولك بابا.. حتى البارحة..

ـ اترك البارحة.. المعارضة كادت تخرب بيتي.. ولم نتنفس الصعداء حتى تركناها.

ـ والله سأموت يا أبي..

ـ انتظر.. بعض الوقت.. على الأقل حتى نأخذ القرض.. والانتخابات أصبحت على الأبواب.. عندها والله سأعمل على إسقاط الحزب.. ونصبح مع حمزة أفندي في حزب واحد. ولن يبقى بيننا لا ماضي.. ولا أكل ولا شرب.. يومها تتزوج إن شاء الله.

تعاونا على إسقاط حزب والدي.. وأرسل خبراً إلى حمزة أفندي يقول فيه:

ـ آمان بالله عليك يا حمزة أفندي.. ضاعف جهودك بعض الشيئ حتى نسقط هذا الحزب.. فإذا لم نزوج ولدينا.. والله سيذوبان حسرة.

على أثره بعث حمزة أفندي خبراً إلى والدي مفاده.

ـ حمزة أفندي يسلم عليك كثيراً ويقول لك لا تخف سنشاهد أولاد أولادنا.

والله لم يبق عندنا لا قوة ولا مروءة ولا أولاد.. لأنه إن مرت عدة سنوات أخرى ستتحول نيكار إلى امرأة عاقر.. أما أنا.. فأصبح كحية الكوسا التي يتركونها تنضج وتصفر من أجل البذار.. ويصبح داخلها فارغاً كالطبل..

جاءت الانتخابات.. ولم يسقط حزب أبي.. ماذا سيحدث الآن؟

قال أبي:

ـ أنا لا أترك مثل هذا الحزب القوي.

أما حمزة افندي فقال:

ـ أنا الآن انتهيت.. التوبة لن أغير حزبي بعد الآن.

ابعدوا عني نيكار.. منعوني من رؤية وجهها. ذهبت إلى حمزة أفندي وركعت أمامه قائلاً:

ـ أبي عديم الشفقة غير منصف إذا لم تشفق علي. فاشفق على ابنتك. وليكن معلوماً لديك إذا لم أتزوج ابنتك سأقتل نفسي.

ـ تكون عملت خيراً فينقص فرد من حزب والدك وينتهي الأمر.

ـ أفندي.. أنا لست حزبياً.

ـ ليكن.. فالابن دائماً على دين أبيه.. ألست ابن ذلك الواطي؟

نفذ صبر نيكار ولم تعد تحتمل ما يجري.. فشنقت نفسها على عتبة الحظيرة. ولكن أمها في الدقيقة الأخيرة أسرعت وخلصتها بصعوبة من الموت المحتم.

بعد هذه الحادثة فكر حمزة أفندي،ورأى أن لا نهاية لهذا الأمر. فاستقال من حزبه ودخل حزب والدي.. عندما سمعت هذا الخبر أسرعت إلى والدي. فوجدته قد ذهب ليشارك بمظاهرة أقامها الحزب المعارض حيث وصل إلى «إق سو» أحد المسؤولين الكبار ليلقي خطاباً في الساحة.. عندما عاد والدي إلى البيت رأيته يبكي.. وكانت عيناه قد تحولتا إلى نبعين.

ـ ماذا حصل يا أبي؟

«يبدو أن المسؤول المعارض قد خطب خطبة كبيرة» عندما سمع أبي هذا الخطاب قال: واه.. واه... الأمر إذن هكذا ها.. لم نعلم بأن الأمور بلغت هذا الحد لن أبقى في هذا الحزب أبداً.

قال ذلك وقدم استقالته وانتقل إلى الحزب المعارض.. لو أن خطبة هذا المسؤول تأخرت يوماً واحداً لكنا تزوجنا وانتهت كل المشاكل.

مرَّ عام آخر ونحن على هذه الحال،إلا أنه في إحدى الأمسيات شرب أبي كثيراً واستلقى على الأرض وقال:

ـ هيا ابعثوا برقية عاجلة إلى أنقرة.

ـ ما هذه البرقية؟

ـ كوني عرفت كل الحقائق.. فإنني أقدم استقالتي ومعي سبعة عشر شخصاً.. هيا أرسلوا البرقية بسرعة.

ـ أمان يا أبي أرأيت هذا عين العقل والحكمة.

أنا شخصياً كتبت البرقية ووضعتها في البريد. وأرسلت خبراً إلى نيكار:

ـ آمان.. بالله عليك.. أمسكي والدك جيداً.. حتى لا يغير حزبه قبل زواجنا.

فأجابتني نيكار:

ـ لقد ترك أبي الحزب من سوء تفاهم حصل من أجل قرض أراد الحصول عليه.. يبدو أن هذا الأمر لا نهاية له.. ليأتِ محمود ويخطفني هذه الليلة. سأترك باب الغرفة اليسارية مفتوحاً وفيها ضوء خافت.

هاه.. هكذا.. الآن سلكت سواء السبيل يا قليلة الإيمان؟ بعد اثني عشر عاماً.. أنا في الأربعين وأنت في السادسة والثلاثين!.

عندما خيم الظلام على الحي ذهبت مع أصدقائي إلى منزل حمزة أفندي.. نصبنا الكمين.. فدخلت المنزل خلسة كان الباب مفتوحاً.. ثمة شخص في الغرفة النصف مضاءة. أشعلت المصباح.. وإذ بي وجهاً لوجه مع أم نيكار.. كانت مرتدية ثيابها وفي يدها صرة ثياب تنتظر قالت:

هيا لنذهب على الفور.

قلت: إلى أين؟

ـ ألن نهرب؟

ـ هل جننت ولك امرأة.. أي هرب هذا.. أين نيكار؟

ـ أتقول نيكار؟ أمان يا محمودي.. هل نسيتني.. أنا نيكار.

ـ أنت نيكار.. آمان..

يبدو أن الأمر يكتنفه الغموض. هل ملَّت هذه المرأة من حمزة أفندي وتريد أن تعيش معي.. ومع هذا فهي تشبه نيكار كثيراً. ولكنها عجوز.. لفت ذراعيها حول عنقي.. ثم عادت إلى الخلف مباشرة. ووضعت المصباح أمام وجهي وصرخت:

ـ آمان..

قلت ماذا هناك؟

ـ ظننتك محمودا!

ـ ومن تظنين أنني هو؟

ـ ألست أبا محمود؟

ـ ما هذا الكلام؟ من شدة اشتياقي لابنتك أصبحت هكذا.

ـ ومن هي ابنتي؟

ـ من تكون يعني.. قليلة الوفاء نيكار

ـ أنا نيكار..

ـ احلفي..

بديني وإيماني.. أصبحت هكذا من كثرة اشتياقي ولوعتي على ابنك محمود.

ـ انتظريني هنا.. حتى أحضر الفرس أمام المنزل. قلت ذلك وخرجت من المنزل.. وخرجت من «أق سور» نفسها ولم أعد إليها أبداً.

واي يا نيكاري الجميلة واي.. اكتب يا أفندي... اكتب.. «محمود ونيكار» أي نحن.

٢

سيكون بخير إنشاء الله

جاء شاب إلى مشفى الأمراض العقلية في «باقر كوي» وقال لأحد العاملين.. وكان يرتدي لباساً أبيض:

ـ أريد رؤية يوسف أفندي.

ـ أي يوسف أفندي؟

ـ يوسف أفندي «المجرلي» من «مجرلي التحتاني».

ـ في أي قسم يعمل؟

ـ لا يعمل.. بل هو مريض من قرية «مجرلي التحتاني».. يوسف أفندي. ألا تعرفه؟ نقلوه إلى هنا منذ شهرين.. رجل معمر إلى حد ما.

ـ تعالَ في أيام الزيارات. لا تستطيع زيارة مريض في اليوم الذي تريده أنت.. تعالَ يوم الزيارة.

ـ أيمكنني رؤية رئيس الأطباء.

ـ عنده عمل.

ـ والدكتور المناوب؟

ـ هذا هو.. أمامك.

وكان يشير إلى طبيبين جالسين في حديقة المشفى تحت شجرة صنوبر وكلاهما يرتديان الزي الأبيض

ـ أنا معلم قرية.. سمعت البارحة أن مريضاً من قريتنا ينام في هذا المشفى واسمه يوسف أفندي. وبما أن إجازتي قد انتهت، ويجب أن أعود إلى عملي هذه الليلة فهل أستطيع زيارته؟

قال أحد الأطباء وكان شاباً

ـ تفضل واجلس.

قال الطبيب البدين:

ـ هل هو قريبك؟

ـ لا.. أنا لست من تلك القرية.. كنت معلماً هناك. ومنذ عامين انتقلت إلى قرية أخرى.. يوسف أفندي هذا أحبه كثيراً

قال الطبيب الأشقر:

ـ عرفته.. وجهه مائل إلى الحمرة أليس كذلك؟ حوالي الخمسين من عمره..

ـ نعم إنه في السادسة والسبعين من عمره.. لكن ملامح الشباب لم تفارق وجهه.

ـ إنه في قسمي. الآن وقت الطعام.. انتظر بعض الوقت.. فنحضره إلى هنا.. وتتقابل معه. إنه مريض صعب.

ـ ما مرضه؟

ـ فكره ثابت لا يتحدث

ـ أبداً؟

ـ يتحدث ولكنه يكرر نفس الكلام على الدوام. وجل ما يقوله «سيكون بخير إن شاء الله».

تنفس المعلم عميقاً وامتلأت عيناه بالدموع وقال:

ـ الآن فقط فهمت.. حرام.. يوسف أفندي هذا كان رجلاً طيباً.. حرام..

قال الطبيب البدين يسأله:

ـ هل كان يشكو علة أو مشكلة ما؟

ـ نعم مشكلته كبيرة.. وكبيرة جداً.. وهي مشكلة «مِجِرْ» مشكلتنا جميعاً.

قال الطبيب الأشقر:

ـ أطلعنا عليها بالتفصيل.. ربما نستطيع مداواته جيداً.

تنفس المعلم عميقاً وقال:

ـ سأشرح لكم. عينوني معلماً في قرية «مجر التحتاني» قرية صغيرة فيها ثمانون منزلاً.. والمدرسة عبارة عن غرفة طينية صغيرة. أعلم الأطفال فيها نهاراً وأنام فيها ليلاً. لم يحضر قبلي أي معلم إلى هذه القرية. بعد وصولي إليها بدأت أفكر بما يتوجب عليَّ عمله. وبعد مرور عشرة أو خمسة عشر يوماً جاءني يوسف أفندي هذا. وقال أنه ترك القرية وهو في الرابعة عشرة من عمره. قاصداً استانبول من أجل العمل ومن هناك التحق بالجندية.. وبعدها عمل بحاراً وعاملاً في كثير من السفن الأجنبية.. فجال العالم كله. وأتقن ثلاث لغات عالمية. وأمضى في السويد وانكلترا وفرنسا سنوات طويلة. وعند بلوغه الأربعين من عمره ذهب إلى أمريكا واستقر هناك. وجمع أموالاً طائلة يستطيع أن يشتري بها قرية «مجر» بسكانها ومنازلها وأراضيها وحيواناتها. قال: إن شوقه إلى بلده تأجج في صدره وحسرة العودة إلى الوطن لازمته مدة طويلة. وكان يقول في نفسه سأعود إلى الوطن وأتزوج وأبني عشاً جميلاً ويكون عندي أطفال. وهكذا تأخر في الرجوع وصار عجوزاً.. لم يستطع المسكين أن يتحمل لوعة فراق الوطن فقال على الأقل أموت

في بلدي.. فشد رحاله وعاد. ولكن بعد مضي خمسين عاماً لم يعرفه أحد في القرية. أبناء بلده لم يعجبهم رجوعه هكذا دون سابق إنذار.. وخاصة أقرباؤه. ظنوا أنه عاد ليأخذ أموال جده وأبيه ولكن لم يعلموا أن يوسف أفندي هذا يملك المال الكثير،وبعد أن جال العالم كله.. أراد أن يحول قريته «مجر» هذه إلى قرية نموذجية تشبه قرى فرنسا وانكلترا وأمريكا. فأنفق أموالاً كثيرة،هكذا كانت نواياه.. وعندما بدأ بتوزيع المال والهدايا على القرويين.. تغيرت ملامح وجوههم وارتسمت عليها البسمة. يوسف أفندي هذا أعجبني كثيراً.. إنسان مثقف وروح مرحة لا يشبه «المجرليين» أبداً. فأنتم لا تعرفون سكان «مجر» حتى..

قال الطبيب الأشقر:

- غريب..

أكمل المعلم حديثه:

لو لم يأتِ يوسف أفندي إلى القرية لجننت. جاء وزرع الأمل في قلبي. عجوز أشبه بالجن سألني: «أين أطفال المدرسة؟»

قلت: «لا يوجد أطفال.. أنا الآخر جئت إلى هنا منذ زمن قصير ما من أحد يرسل طفله إلى المدرسة» قال يوسف أفندي:

«اسمع يا أستاذ سنتعاون معاً على تنشيط حياة القرويين،سنجعلهم يعملون ويفكرون» قلت: «أمان يا يوسف فأنا أفكر بذلك منذ عدة أيام».

قال: «هيا لنذهب إلى المقهى ونشرح لهم خطتنا» ذهبنا إلى المقهى.. ورجال القرية كلهم هناك تقريباً.. قال يوسف أفندي:

- مرحباً يا أغوات..

خرجت همسات من عدة محلات.

- مرحباً.

وضع اثنان أو ثلاثة منهم يده على صدره.. وردوا التحية ولكن ببرود شديد.. فحركة أيديهم استغرقت دقيقتين تقريباً منذ رفعها إلى الصدر وعودتها إلى وضعها الطبيعي. جلس يوسف أفندي قريباً من مراد آغا. وشرح لهم فوائد التعليم والمدرسة. وقال لنعلم أطفالنا. وشرح وشرح.. وشرح ولكن «لا من سمع ولا من دري».

عاد يوسف أفندي إلى الشرح مرة أخرى. نظرت إلى وجه مراد آغا كانت عيناه مغمضتين وهو من وجهاء مجر.

قال يوسف أفندي:

- ماذا تقولون يا أغوات؟

ولكن ما من مجيب.

- ماذا تقول أنت يا مراد آغا؟

التفت مراد آغا إليه وأطال النظر ثم قال:

- ماذا سنقول يا يوسف أفندي.. سيكون خيراً إن اء الله.

عاد يوسف أفندي مرة أخرى إلى مقدمة حديثه. يجب توسيع المدرسة ويجب أن يكون هناك غرفة للمعلم.. مع إضافة صفين آخرين والسطح يجب أن يكون بالاسمنت المسلح وتعهد يوسف أفندي بكلفة هذا العمل وأن يدفعه من ماله الخاص. أما المجرليون فعليهم العمل والمساعدة.

سألهم ثانية: ماذا تقولون يا أغوات؟

ولا من مجيب.. هذه المرة التفت صوب القهواتي «خضر» وقال له:

- ماذا تقول يا خضر آغا؟

كان خضر آغا مستلقياً فوق المصطبة وقد أغمضت عيناه:

ـ ماذا تقول يعني.. يكون خيراً إن شاء الله..

خرجنا من المقهى.. قال يوسف أفندي:

ـ هيا لنذهب إلى المختار.

كان المختار يملك دكاناً. ذهبنا إليه.. فشرح يوسف افندي للمختار كل ما شرحه في المقهى.. زاغت عينا المختار وهو يستمع.. وأطبقتا.. راح يداعب أحلامه.

عندما أنهى يوسف أفندي حديثه قال للمختار ثانية

ـ الأمور هكذا يا مختار.. سنتعاون مع بعضنا..

أما المختار ففتح عينيه الذابلتين وصار ينظر لى يوسف أفندي، ولا أحد كان يعرف إن كان فهم شيئاً أم لا.

قال يوسف أفندي:

ـ ماذا تقول يا مختار؟

قال المختار:

ـ يكون خيراً إن شاء الله.

تركنا حانة المختار.. قلت ليوسف أفندي:

ـ ماذا سنفعل يا يوسف أفندي؟

ـ سنحاورهم.. وسأبني المدرسة حتى ولو دفعت كلفتها وأجور العمال من جيبي.

أحضر يوسف أفندي كل مستلزمات البناء.. الكلس والحصى والاسمنت والأحجار.. وسمع أن «صاري موسى» معلم في البناء.. فأحضره ووضع معه ستة شباب أقوياء ليساعدوه في العمل..

ويوسف أفندي تعهد بدفع أجرهم اليومي بدأوا العمل.. ولكن بدون نتيجة.

ـ هيا يا «صاري موسى» (موسى الأصفر).

ـ سنبدأ يا يوسف أفندي سنبدأ. عله خير إن شاء الله.

يحضر يوسف أفندي في اليوم التالي ويشرح لصاري موسى ويشرح.

ولكن صاري موسى «لا من شاف ولا من دري» وعندما ينتهي حديث يوسف افندي.. يقول له:

ـ لا تأكل هماً يا يوسف أفندي.. سيكون خيراً إن شاء الله.

مرَّ أكثر من شهر والجدران لم ترتفع أعلى من الركبة.. عندها ذهب يوسف أفندي إلى البلدة وأحضر بنائين وعمالاً. وأنهى بناء المدرسة.. وحتى الآن لم يحضر الأطفال.. ذهبنا إلى الإمام الذي جاء وقطن «مجر» منذ عشرين عاماً.. وسكن فيها واستقر نهائياً.. فقال له يوسف أفندي:

ـ أمان.. بالله عليك يا سيدنا الإمام.. أهالي القرية يسمعون كلامك.

كانت عينا الإمام تنظران إلى يوسف أفندي.. وفجأة ذبلتا وأغمضتا وانتقلتا إلى عالم آخر.. سكت يوسف أفندي.

عندما لم يصدر أي صوت عن سيدنا الإمام صرخنا معاً: إمام أفندي.. إمام أفندي.

مسح الإمام لحيته وقال:

ـ سيكون خيراً إن شاء الله.

بعد جهد جهيد استطعنا أن نجمع ستة عشر طفلاً في المدرسة.

ذات ليلة كنا جالسين في المقهى، وإذا بصاري موسى يدخل فجأة

ولكنه ليس صاري موسى كالذي نعرفه.. كان مضطرباً جداً كثير الحركة.. يضرب نفسه هنا وهناك.. وقال: إن بقرته تتألم من شدة المغص وأردف قائلاً:

ـ أمان الحيوان المسكين سيموت.

ذهب إلى ماد آغا وشرح له الأمر وإلى القهواتي خضر ثم بدأ ينادي:

ـ مراد آغا.. مراد آغا.. قل شيئاً ولك روحي.. قل شيئاً لنعمل به.. الحيوان سيموت ولك...

فحرك مراد آغا شفتيه متمتماً.

ـ سيموت خيراً إن شاء الله.

اتجه صوب القهواتي خضر

ـ آمان ولك عمي خضر.. هل تعرف دواءً ما؟

فأجابه القهواتي:

ـ لا تضطرب هكذا.. المقدر لها سيحصل ولا مفر.

ـ الحيوان سيموت ولك عمي.

ـ يكون خيراً إن شاء الله.

خرج صاري موسى من المقهى وهو يسبُ ويشتم الجميع.

في أحد الأيام.. كنا نجلس حول الجُب.. ومعنا صاري موسى وخضر. وإذا بالإمام يجري نحونا مسرعاً وقد لملم أطراف جبته. وقال:

ـ آمان بالله عليكم يا أغوات لقد احترقت.

كان صوته يرتجف.. على وشك البكاء.. ولم يتحرك أحد فقال الإمام:

ـ أسرع يا موسى.. بالله عليك.. أبوس ايديك.. لقد حرقوا البيدر..

اسرع لقد حرقوا البيدر.. قال ذلك وصار يلطم على وجهه قال صاري موسى وهو يتثاءب:

- وقِّف ولك روحي.. شوية.. شوية.. وقف. ماذا جرى؟ لا تضطرب هكذا.. يكون خيراً إن شاء الله.

فصرخ الإمام بأعلى صوته:

- ولك.. الله يطفئ موقدك.. ماذا بقي يعني.. راح كل ما عندي.

أقول لك حرقوا البيدر.. أسرع.

قال خضر ببرودة أعصاب وصوت خافت.

- لا تصرخ هكذا.. إن شاء الله يحصل الخير.

أسرع الإمام نحو دكان المختار.

كل ليلة كنا نجلس مع يوسف أفندي ونتحدث عن أحوال القرية. كان دائماً يسألني: ماذا سنفعل؟ وأنا أسأله: ماذا سنفعل؟

جاء الشتاء وهدأت القرية.. كأنها تخدرت كلياً.

في منتصف أحد الليالي استيقظت على صوت بكاء حزين.. كان الصوت قادماً من المقهى.. لبست ثيابي وذهبت إلى هناك. كان القهواتي خضر يبكي ويولول.. ويلطم.. لقد ضبط زوجته مع المختار،وصار يشرح كيفية القبض عليها، يبكي ويصرخ ويولول.

وكان الإمام يتثاءب ويقول:

- يكون خيراً إن شاء الله.

- ولك إمام!

- يحصل خير.. يحصل خير.. ولك خضر آغا.. يحصل خير إن شاء الله.

ـ ولك إمام أين الخير.. وأين الإن شاء الله.. أقول لك قبضت على المختار مع زوجتي في مستودع التبن.

مراد آغا:

ـ كن صبوراً.. كن صبوراً.. الله يجازيه.. يحصل خير إن شاء الله..

كان خضر غاضباً جداً.. والزبد يخرج من فمه.. يسبُ الجميع ويشتمهم.

صباح اليوم التالي.. قصصت كل ذلك ليوسف أفندي. قال:

ـ كل من تصيبه مصيبة يتحرك. يجن ويفقد عقله،وفي اليوم التالي ينسى كل شيئ. إذا كان المجرليون يفتحون أفواههم خمس مرات.. فإنهم يكررون «يكون خيراً إن شاء الله» خمس مرات. لولا وجود يوسف أفندي لجننت،وهو الآخر يقول لي «لولا وجودك يا أستاذ أنا الآخر لجننت».

جاء الربيع وذابت الثلوج. وبينما كنا نجلس في دكان المختار ومعي الإمام وصاري موسى. وإذا بمراد آغا العملاق يصرخ:

ـ يا مختار.. ولك يا مختار.

كان مراد آغا ينط ويقفز في مكانه مثل الجرادة.. والدموع تنهمر وتنساب بين شعرات لحيته.

ـ يا مختار.. آمان بالله عليك يا مختار.. ابني راح يا مختار. أسرع يا مختار.

والقصة أن أشخاصاً نصبوا كميناً لابن مراد آغا وأطلقوا عليه النار.. ومراد آغا يبكي من جهة ويشرح الموقف من جهة أخرى.

ـ قل شيئاً يا مختار.. قل شيئاً.

ـ ماذا سأقول يا آغاتي.. يكون خيراً إن شاء الله.. ماذا سأقول غير ذلك يعني؟

ـ ولك قواد يا مختار.. انت عدو العرض والناموس يا مختار.

ـ يكون خيراً إن شاء الله يا مراد آغا.

ـ هل هناك مصيبة أكبر من مصيبتي يا واطي.. ابني البكر مضرج بالدماء.. ينام. مات ولك.. ولدي انتهى يا صاري موسى.

ـ حصل خير يا مراد آغا.. يحصل خير إن شاء الله.

كنت على وشك الجنون.. في تلك الليلة زارني يوسف أفندي.

وقال: ما نهاية هذه الأمور؟

وإذ بي أقول له: والحيرة تجتاحني.

ـ يكون خيراً إن شاء الله يا يوسف أفندي.

كاد يوسف أفندي أن ينفجر غيظاً.

ـ أنت أيضاً يا أستاذ.. أنت أيضاً؟

ـ والله لا أقصد.. التوزبة.. لا أقصد.. خرجت مني غصباً عني يا يوسف أفندي.

بعد فترة من الزمن وفي صبيحة أحد الأيام.. كنا في المقهى.. وإذا بالباب يفتح بقوة. ويدخل المختار منه وهو يلطم وجهه ورأسه وصدره حتى صار جلده أشبه بجلد الفهد ويصرخ:

ـ آمان يا أغوات.. آمان.

لم يسأله أحد ماذا حصل يا مختار؟

وظل يشد شعرات رأسه ويلطم جسده ويصرخ قائلاً:

ـ قوموا يا أغوات.. قوموا.. لقد شردوا ابنتي.

كان المختار يتجه أحياناً إلى مراد آغا شارحا موضحاً.. ومرة إلى خضر.. باكياً وشاكياً.. والإمام يحك رأسه.

ـ ولك إمام شردوا ابنتي... ابنتي يا إمام.

وإذا بصاري موسى يقول وبهدوء من بعيد:

ـ يحصل.. يحصل.. يحصل خير إن شاء الله يا عمي المختار.

ـ أقول لك يا أخي مراد آغا.

ـ يكون خيراً إن شاء الله.

لم يمضِ اسبوع واحد على حادثة المختار.. وإذا هم يخطفون كنّة الإمام إلى الجبال. ثم شردوا زوجة خضر الثانية.. قال صاري موسى صارخاً:

ـ زوجتي تموت.. الحقوني.

رموا أخ صاري موسى، دون أي حركة حتى ولا صغيرة. وإذا ما حركتهم القوة.. يخدعون أنفسهم ويقولون:

ـ يكون خيراً إن شاء الله.. يكون خيراً إن شاء الله.

مساء أحد الأيام.. كنت ماراً أمام المقبرة.. وإذا بحجرة تصيب رأسي وتفجرت منه الدماء.. جئت إلى يوسف أفندي والدماء تسيل على وجهي وبدأت أصرخ في وجهه.

ـ بعد الآن لن أبقَ في القرية دقيقة واحدة. شرحت له الأمر وإذا بعيني يوسف أفندي قد ذبلتا:

ـ آمان بالله عليك يا يوسف أفندي.. قل شيئاً ما بل لا تقول شيئاً.

وإذا به يرفع رأسه وينظر إلي بحسرة:

ـ ماذا سأقول لك يا بني.. يكون خيراً إن شاء الله.

جاءت عطلة الصيف قلت:

ـ لن أبق في هذه القرية.

حزن يوسف أفندي كثيراً وقال وهو على وشك البكاء:

ـ لا تذهب.. إذا ذهبت أنت أيضاً.. سأجن هنا وحدي.

في اليوم الذي كنت سأغادر فيه القرية جاء يوسف أفندي إلى المقهى وهو ينزع شعرات رأسه. لأن اللصوص دخلوا منزله وسرقوه وصار يسأل فلم يفتح أحدٌ فاه.

ـ من يفعل ذلك؟ قولوا شيئاً ما!

وإذا بمراد آغا يقول:

ـ ماذا سنقول لك يعني... يكون خيراً إن شاء الله.

فضرب يوسف أفندي رأسه بالجدار:

ـ راحت المصاري.. هل في ذلك خير؟

غادرت مجر.. وتعينت في قرية أخرى.. وأنا في استنبول منذ شهرين بالأمس سمعت بأن يوسف أفندي قد جن.

قال الطبيب البدين:

ـ واه.. واه... لنرسل له خبراً لتتقابلا.

بعد قليل أحضروا عجوزاً أحمر الوجه.. قوي البنية.. قال المعلم بصوت راجف:

ـ مرحباً يوسف أفندي.

قال يوسف أفندي:

ـ حصل خير.. حصل خير إن شاء الله.

ـ ألم تعرفني يا يوسف أفندي؟

- يكون خيراً إن شاء الله.

امتلأت عينا المعلم بالدموع.

- كيف حالك يا يوسف أفندي؟

أخذوا يوسف أفندي ثانية.. كان يتمتم «يكون خيراً إن شاء الله»

شكر المعلم الطبيبين وسأل:

- هل تتحسن حاله يا ترى؟

قال الطبيب الأشقر: إن شاء الله يتحسن.

وقال المعلم: يكون خيراً إن شاء الله.

٣

يمين.. يسار

خذوا ورقة وقلماً واكتبوا كل ما سأقوله لكم. قبل كل شيئ. اعملوا سطرين متوازيين على طول الورقة.. هنا أحد الطرق الرئيسية في استانبول «جادة الحرية» عن هذه الطريق تتفرع ثلاثة شوارع فرعية. تقطع الشارع الرئيسي.. بشكل عمودي.. وهذه هي أسماء الشوارع الثلاثة لإحدى الجهات: «طلعة يا ندم» (احترقت) «وشارع زارتبان» وشارع «هايفروم» (ها ضنايا).

أما أسماء الشوارع المقابلة لهذه الشوارع التي ذكرناها هي:

شارع «حاج ذورفي الدين» و«شارع المقام أو القبر المغلق» و«شارع سلام قولاً».

والآن سأشرح لكم الأوضاع الطبوغرافية لهذه الشوارع الستة:

بما أن هذه الشوارع كلها فتحت باتجاه البحر على هضبة خضراء مطلة على البحر. فكان من يسلكها صعوداً باتجاه الهضبة يجدها قاسية وصعبة وإذا سلكها من الطرف الآخر تكون منحدرة حتى البحر سهلة المسلك. ومكان التقاء الشوارع النازلة بالصاعدة عبارة عن سهل فسيح مستوٍ وهو «جادة الحرية».

هل من أحد لا يتمنى ولا يفرح إذا فتحت الطرق في استنبول وأقيمت حولها الحدائق التي تكسوها الأشجار والأزهار؟ طبعاً الجميع يفرحون ويسرون لذلك. ولكن فرحنا نحن أكثر من الآخرين. لأن عمي يعمل

متعهداً للطرق، ومنذ عامين. قبل ذلك لم تكن علاقته بالطرق أكثر من السير عليها وذلك له سبب فقد جرمته إحدى المحاكم بجرم ما.. وبسببه طُرد من وظيفته.. ذهب عمي إلى حزبه وقال لهم: مضت سنوات عدة وأنا أقدم الخدمات الجلّى لهذا الحزب. والآن «جاء دوركم لتقدموا إلي شيئاً».

فقالوا له: «اعمل متعهد طرق» فأجابهم عمي: «لا أملك المال».

فقالوا له: «هذا العمل لا يحتاج مالاً، لذا قلنا لك اعمل متعهد طرق» فسألهم عمي: «وكيف يكون ذلك؟» قالوا: «عندما تبدأ العمل تفهم كيف تسير الأمور، نحن أيضاً نقوم بهذا العمل دون مال. وعندما يطلبوا منك المال.. حرر لهم سنداً وقل لهم اعتبروه ديناً».

صار عمي متعهد طرق، وبما أنه يحبني كثيراً قال لي:

«لا أمل منك ولن تصبح بشراً.. تعالَ واعمل معي لتصبح متعهد طرق»

قبلت عرض عمي. فقال لي «غداً صباحاً سنبدأ بالعمل.. مرَّ عليَّ باكراً»

لأنهم صباح الغد.. سيقررون أي طريق سيوسعونه. ركبنا سيارة أجرة وانطلقنا، وهناك سيارات أخرى انطلقت معنا.. سيارتنا في المؤخرة وهي عبارة عن تاكسي أجرة. أما السيارات الأخرى فهي خاصة. حاول سائق سيارتنا بين وقت وآخر التقدم بين قطيع السيارات الخاصة. عله يحتل المقدمة. فكان عمي يغضب ويقول:

«يا سائق أفندي لا تقلل أدبك ولا تخالف الدور ولا تترك مؤخرة القافلة».

يقولون أن ثمة متعهداً كبيراً يركب السيارة التي تسير أمامنا. وكان ترتيب سيارتنا في الدور حسب كبر أو صغر تعهداتنا.

ظلت السيارة تسير بنا حتى وصلنا مفترق الطرق في جادة الحرية التي ذكرتها آنفاً.. فتوقفت السيارة الأولى هناك وهكذا توجب على السيارات الأخرى أن تتوقف. ترجل الجميع من سياراتهم. ونحن كذلك. وتجمعنا حول الأشخاص الذين نزلوا من السيارة الأولى. وكانت رياح قوية تلف المنطقة كلها مما أوجب على الجميع أن يضعوا إحدى يديهم على قبعاتهم خوفاً من أن تنتزعها الرياح. الجميع هناك من مستويات عالية. أراد أحدهم أن يتحدث من علٍ فأنزل يده عن قبعته احتراماً للحاضرين وإذا بالرياح القوية تحمل قبعته عن رأسه وتذهب بها بعيداً.. وهكذا بدأت القبعات تتطاير في أجواء المكان ذرافات ووحدانا.. والخبراء منهم تمكنوا من الإمساك بقبعاتهم قبل أن تبتعد كثيراً.. أما قليلوا الخبرة.. فكانوا يهرولون خلف قبعاتهم.

شخص واحد فقط.. لم ينزل يده عن قبعته أثناء تحدثه مع الآخرين.. ويبدو أنه أكبر الموجودين سناً ومكانة. كلنا كنا نحاول الوصول إليه.

وقف الجميع ينظرون إلى الشوارع المتقاطعة في جادة الحرية.. فيهزون رؤوسهم ويتأففون وبعضهم يضغط على أسنانه. جيك.. جيك.. جيك.

ـ يا لهذا الإهمال.. يا لهذا الإهمال.

كان الكبير.. ينقل هذا التذمر إلى من هو أصغر أو أدنى منه.

ـ يا لهذا الإهمال.. يا لهذا الإهمال.

ـ وأي إهمال.

وكل واحد يضيف من عنده بعض الأفكار متوازية مع هذه الكلمات.

ـ ما هذا الإهمال يا سيدي؟

ـ مستحيل.. إنه إهمال لا يمكن تصوره.

ـ والله أعلم.. يبدو أنه أكثر من مائة عام لم تعمل فأس واحدة في هذه الشوارع.

تحدث أحد الموجودين قربي:

ـ يا إلهي.. ليس لهم علاقة بالعمل.

قلت له:

ـ هل أنت هنا لأول مرة؟

قال: لا.. أمر من هنا صباحاً ومساءً.. منزلي هناك في آخر هذا الشاعر.

ـ تتحدث وكأنك ترى المنطقة لأول مرة..

في هذه الأثناء.. تحدث الشخص الذي لم ينزل يده عن قبعته مع عمي وأسرَّه شيئاً ما. وعندما حاول عمي الردَّ عليه أنزل يده عن قبعته احتراماً له. وإذا بالقبعة تطير عن رأسه. احتار عمي بأمره.. هل يجيب الرجل؟ أم يجري خلف قبعته؟ وبينما هو في حيرة من أمره صدرت عنه هذه الكلمات:

ـ نعم يا سيدي... أمسكها ولك... أنت محق يا سيدي... أسرع ولك..

وعندما نظر إلي بحدة فهمت ما يجري في أعماقه. كان يريد أن يجيب الرجل.. ويتحدث معي.. فيقول له: نعم يا سيدي ويقول لي: «أمسكها ولك».

ركضت خلف قبعة عمي لأمسكها. فوجدتها قد كويت تماماً تحت عجلة الترمواي.

وجدت الرجل الذي لا يرفع يده عن قبعته قد أخرج من محفظته رزمة من الأوراق النقدية كانت أطرافها تتطاير مصدرة أصواتاً.. يبدو أن

الشخص كان مهندساً. لم يقوَ على عد الأوراق بأي شكل من شدة الرياح. فقال:

ـ الأمر مفهوم.

فأخذ حجرة بيده اليمنى ورمى بها نحو الشارع «ها ياضناي» فقال وهو يشير إلى مكان سقوط الحجرة:

سينخفض مستوى الطريق حتى مكان سقوط الحجرة.. سيكون هذا الشارع على مستوى جادة الحرية.

كان يحمل قبعته بيده اليمنى.. التي رمى بها الحجر.. مع رميها أفلتت القبعة أيضاً.. وطارت في الهواء.. وبما أن اتجاه الريح كان نحو البحر.. اتجهت القبعة نحو شارع «سلامْ قولاً» وطفقنا جميعاً نجري خلفها. وهي تطير كانت تقوم بحركات بهلوانية كأنها طيار ماهر.. تنزل بعض الشيئ.. ثم ترتفع فجأة. أما نحن فكنا نقفز عن الأرض نحاول التقاطها كما يفعل لاعب كرة القدم الذي يقفز ليضرب الكرة برأسه. المهارة أن تلتقط القبعة في الهواء قبل أن تسقط على الأرض وتتعفر بالغبار. إنها تعرف كل شيئ.. كانت تهبط رويداً رويداً وعندما نريد إمساكها ترتفع فجأة.. أحسست أن أحد أصابعي قد لامست القبعة غير أن رجلاً من المطاردين؟.. شعر أنني سألتقطها فأحس بالغيرة مني فدفعني أرضاً. ولكن هذه العملية كانت خسارة لي وله. حطت القبعة على شارع «سلام قولاً» وصارت تحط وتقفز.. من عرض الشارع متجهة نحو البحر تسوقها الرياح. وبما أنها كانت أحياناً تلامس الأرض.. لم يكن باستطاعتها الهروب من أيدينا حتى ولو صارت حصاناً عربياً.. وبعد مطاردة استمرت على مدى بضع مئات من الأمتار.. استطاع أحدهم التقاطها. لكن أحد «الغيورين» أراد انتزاعها منه.. فتمزقت وصار قسم منها مع ملتقطها والقسم الآخر في يد الرجل الآخر. فحملاها وسلماها إلى صاحبها. نظر

صاحب القبعة بغضب إلى شارع «سلام قولاً» وقال:

ـ ليرتفع هذا الشارع أيضاً.

لو لم يكن هذا الشارع بهذا الانحدار الشديد.. لكان التقاط القبعة سهلاً جداً. يجب أن يسوَّى هذا الشارع ويرتفع كي يسهل التقاط القبعات عليه مستقبلاً.

ثم ركب كل من الحاضرين سيارته وغادروا المنطقة.. عند المساء قال لي عمي غاضباً:

ـ تقول أنك حارس مرمى ماهر ـليست المهارة بإمساك الكرة وإنما بالتقاط القبعة.

صباح اليوم التالي توجهنا إلى شارع «هاضنايا».. الذي يجب أن يخفَّض مستواه. ومعنا مجموعة كبيرة من المتعهدين. وهناك حدث سوء تفاهم بين المتعهدين والمهندسين حول مكان سقوط الحجر. كل واحد كان يشير إلى مكان مختلف عن الآخر. فواحد يشير إلى شجرة على بعد أربعة أو خمسة كيلومترات قائلاً:

ـ أتذكر تماماً.. أن الحجر سقط هنا.

فيعارضه الآخرون معارضة شديدة قائلين:

ـ اترك الحجرة.. حتى الرصاصة لا تصل إلى هناك. هل يستطيع المرء أن يرمي حجراً إلى مسافة مسير ساعة.

قال الرجل:

ـ الذي يرمي... يرمي.. فالأمر يختلف وفق تصورات الرامي نفسه.. يعني.. ماذا تريدون أن تقولوا؟ ألا يستطيع أحداً أن يرمي حجراً إلى هنا؟

ـ لو أراد أن يرميها أبعد من ذلك لاستطاع.. لكنه لم يجد ذلك مناسباً فسقط الحجر هنا.

قال عمي:

ـ لا تتجادلوا ولا تختلفوا من أجل شيئ تافه.. ها هي الحجر.

وكانت هناك حجر طُمر قسم منه في التراب. فقالوا لعمي:

ـ هيا ارفعه.

عندما عجِزَ عمي عن زحزحة الحجر قال:

ـ لا يقدر أحد أن يزحزحه لأنه سقط بقوة فغار قسم منه في التراب.

وكان شخص آخر قد حمل حجراً آخر وقال:

ـ هذا هو الحجر.

كان كل واحد قد حمل حجراً لا على التعيين وفق هواه. بعد مناقشات حادة استمرت طويلاً.. توصلوا إلى معرفة مستوى تخفيض شارع «ها يا ضنايا» وكان من المقرر أن يرفع مستوى شارع «سلام قولاً» ليكون على مستوى «جادة الحرية».

وضع العمل في المناقصة فرست على متعهد.. باع هذا المتعهد العمل إلى متعهد آخر فربح مائة ألف ليرة وهذا الثاني باعه إلى متعهد آخر.. فربح هو الآخر سبعين ألف ليرة.. ومن متعهد إلى آخر حتى وصل الدور إلى عمي.. فدفعوا له مبلغ عشرين ألف ليرة كربح ليبيعها إلى آخر.. وقالوا له: في كل الأحوال. أنت لا تملك المال اللازم للقيام بهذا العمل بعنا التعهد.. وخذ عشرين ألف ليرة وانسحب.

وبما أن عمي يحب المال كثيراً قال: «أبحث عن شريك آخر وأربح مالاً أكثر» فوجد شخصاً يدعمه بالمال.

بدأنا بالعمل. وكما قالوا لنا.. خفضنا شارع «ها يا ضنايا» مترين إلى الأسفل.. ورفعنا شارع «سلام قولاً» ثلاثة أمتار لنقلص الفارق بين مستوى شارع «ها يا ضنايا» وشارع «سلام قولاً» وجادة الحرية. ولكن عندما أنهينا

العمل، وجدنا أن شارع «ها يا ضناي» قد انخفض مستواه عن جادة الحرية قرابة المتر وشارع سلام قولاً، قد ارتفع عن مستوى جادة الحرية متراً ونصف.

أصبح الوضع على هذا النحو قديماً، كانت السيارات التي تصعد من «سلام قولاً» تنعطف في جادة الحرية وتصعد إلى شارع «ها يا ضناي». أما الآن فلم يعد باستطاعة السيارات أن تمر من الشارعين دفعة واحدة، أما المشاة فصاروا يقفزون من شارع «ها يا ضناي» إلى جادة الحرية.. فيمرون فيها ويتسلقون جدار «سلام قولاً».

في الوقت الذي كنا نعمل فيه على تقليص فارق المستوى بين شارع ها يا ضناي وسلام قولاً مع مستوى جادة الحرية.. كان متعهدون آخرون يعملون في الشوارع الأخرى.. نفس العمل. حيث كان شارع زارتبان.. مقابل شارع المقام المغلق.. وطلعة يا ندم مقابل شارع حاج ذورفي الدين.. كان المتعهد الآخر قد عمل عكس عملنا تماماً.. كان شارع زارتبان على مستوى أعلى بكثير من جادة الحرية. وشارع المقام المغلق.. أخفض بكثير من جادة الحرية. والمتعهد الذي جاء بعدنا.. كان قد نفذ بخلافنا نحن الاثنين فقد رفع مستوى كلا من الشارعين.. شارع «يا ندم» وشارع «ذورفي الدين» أعلى من مستوى جادة الحرية. حيث صارت أشبه بحفرة تشبه مسيل نهر ليس إلا. وملخص الكلام لم يكن باستطاعة أحد أن ينعطف يميناً أو شمالاً من جادة الحرية في وقت كان الجميع مضطرين على المرور من هذه الجادة.

بعد هذا تدارسوا فيما سيفعلونه. وتوصلوا إلى قرار، ملخصه العمل على رفع وتخفيض مستوى الشوارع. وجرت المناقصة.. فكانت من نصيب متعهد.. باعها لمتعهد آخر وربح مئات الآلاف من الليرات ولما جاء دور عمي قالوا له:

ـ خذ ثلاثين ألفاً وانسحب.. إلا أن عمي.. بعد أن ذاق حلاوة الربح.. لم يبعها.. وعملنا على التخفيض والرفع وفق القياسات الهندسية ووفق التعليمات الأخرى. رفعنا مستوى الشوارع المنخفضة. وأصبح الوضع على هذا النحو: جادة الحرية بقيت في الوسط منتصبة كعمود وأصبح الشارعان «سلام قولاً» و«ها يا ضناي» منخفضين. فقال عمي:

ـ الشيئ الجميل الذي قمت به هو أنني أنزلت من مستوى شارع «سلام قولاً» متراً أقل من الواجب كي أنتهي من العمل بسرعة. ولو لم أفعل ذلك.. لأصبح الشارع كالبئر وجادة الحرية كالمئذنة.

أما شارع المقام.. فقد أغلق كلياً.. ولم يبق أثر للشارع أبداً. وطلعة يا ندم بقيت شديدة الانحدار، ولكنها انعكست فأعلاها انخفض وأسفلها ارتفع.

بعد ذلك صدر قرار جديد: يقضي بإعادة الشوارع إلى حالتها القديمة.. كما كانت سابقاً.. رست المناقصة على عمي بالترتيب الخامس. وبعد عمل دام شهرين كان الوضع هكذا: شارع «ها يا ضناي» انخفض مستواه كثيراً وصار أشبه بأسلاك الكهرباء والهاتف معلقاً في الهواء. أما شارع سلام قولاً فقد ارتفع وإذا لم يدعم بجدار اسمنتي على جانبيه مع حاميات من الحديد. يصبح السير عليه يشكل خطورة كبيرة.

أما شارع زارتبان فقد انخفض نحو الأسفل وتحول إلى مسيل للمياه والينابيع تتفجر من نهايته. والقاطنون في هذه المنطقة صاروا يسحبون المياه بواسطة الحبال والسطول من منازلهم.

وحسبما يقولون ونتيجة هذه الأعمال فإن مدينة استنبول وعلى مدى تاريخها الطويل ولأول مرة.. لن تعاني من نقص في المياه هذا العام.

وكذلك كانت المياه قد نبعت من أسفل شارع حاج ذورفي الدين. غير أنها كانت مالحة. لأن الشارع وكما يقولون قد انخفض تحت مستوى سطح البحر مترين ونصف. ولا يمكن المرور عبر هذا الشارع إلا بالمراكب.

أما شارع المقام المغلق.. فقد تحول إلى مصيف من الدرجة الأولى ويقال أن أحد الأمريكيين طلب السماح له ببناء فندق في تلك المنطقة.

حار الجميع في هذا الوضع الغامض.. بُدء بالعمل ثانية.

رُفعت الشوارع التي انخفضت وخفضت الشوارع التي كانت مرتفعة ولكن «الدوزان» كان قد خرب كلياً. ومهما حاولنا إعادة ربط الشوارع بجادة الحرية.. إلى ما كان عليه سابقاً لم نجد إلى ذلك سبيلاً.

وأعتقد أن القرار الهام، كان القرار الأخير وينص بما أننا لم نستطع أن نناسب الشوارع مع جادة الحرية.. كان علينا أن نناسب الجادة مع هذه الشوارع.. ونحصر العمل في الجادة نفسها. وترك الشوارع. وهكذا أضعنا طرف الحبل كلياً. وصرنا نتخبط في متاهات لا نهاية لها. كنا نأخذ التراب من أعلى قمة في الجادة ونفرغها في الأماكن المنخفضة وفي نهاية هذا العمل أصبح وضع الجادة على النحو التالي: استحالة مرور وسائط النقل من أعالي الجادة. حتى المشاة كانوا يمرون بصعوبة بالغة.

كل الخطوط المعروفة في علم «الفيومترا» كانت موجودة في جادة الحرية.. المنكسر.. والمستقيم.. والمنحني.. والدائري.. لم يكن طريقاً.. بل وسيلة إيضاح تفيد الطلبة الذين يدرسون الطبوغرافية.

كنا نأخذ التراب من النقاط المرتفعة ونملأ بها الأماكن المنخفضة. فكان القسم العلوي من الجادة يُخرب كلياً. وعندما نعكس العمل.. يخرب القسم المنخفض. نحاول تسوية المرتفع مع المنخفض يخرب الوسط. لم

يبقَ مكان واحد مستوياً.. كل شيئ يخرب.. وعبثاً حاولنا الإصلاح فالطريق تخرَّب كلياً.

الشوارع والحارات أصبحت أشبه بأمكنة عاش فيها الخلد. ولما تأكدوا أن الأمر فوق طاقتنا ولا نستطيع ربط الشوارع بالجادة ثانية. قالوا: لنعمد إلى فتح نفق تحت جادة الحرية. حتى نوحد شارع «سلام قولاً» وشارع «ها يا ضنايا» وكان هذا معقولاً إلى حد ما. ولكن بما أن شارعي زارتبان والمقام المغلق كانا مرتفعين

توجب إقامة جسر فوق الجادة لربط الشارعين: غير أن ذلك جعل الوضع أكثر تعقيداً.. لأن بقاء شارع حاج ذورفي الدين منخفضاً وشارع زارتبان مرتفعاً ولا يربط بين هذين الشارعين أي جسر في الأعلى أو أي نفق في الأسفل أمر مستحيل فقرروا بناء سلم حجري بين الشارعين. يعني أن جادة الحرية ستصبح هكذا: نفق... جسر... درج مرة أخرى.. نفق.. جسر.. درج..

بُدِئَ بالمشروع.. بعد عمل دام ثلاثة أشهر أصبح الوضع هكذا: الدرج الذي يجب أن يكون باتجاه الأعلى.. أصبح متجهاً نحو الأسفل. يعني أن الدرج أصبح شديد الانحدار وأدنى من مستواه. ولو لم يُلاحظ ذلك: لكان الدرج قد وصل إلى مركز الأرض. وربما ثقبها وخرج من الطرف الآخر أما الدرج الثاني الذي أنشئ ليستخدم للنزول.. صار وكأنه للصعود. ولو لم يكشف هذا الخطأ باكراً لكان الدرج قد وصل إلى النجوم.

أما النفق الذي أقمناه فوق جادة الحرية.. والجسر تحته.. بدا النفق فوق الجادة بشكل مخيف. ويغلق مداخل الشوارع كلها.

عندما وصلت الأمور إلى ما هي عليه من الفوضى واللامبالاة. اجتمع المتعهدون وقالوا: «لنترك هذا العمل إلى من هو متخصص فيه».

فقال عمي:

ـ إننا نترك في الوقت المناسب تماماً.. وأنقذنا أنفسنا من هزء الناس بنا. لو أننا بقينا بضعة أيام أخرى لتعرضنا لمشاكل عدة.

أُوكِلَ العمل للمختصين، فأعادوا الأمور إلى نصابها نوعاً ما ولكن بقيت بعض المشاكل الخفيفة معلقة. كانت الشوارع قد ربطت بالجادة. ولكن أبواب البيوت الموجودة على شارع «سلام قولاً» أصبحت عالية عن الرصيف وتوجب وضع سلمين فوق بعضهما كي يتمكن سكان المنازل من دخول منازلهم.. والبعض وضع «تلفريكاً» محلياً بوضع بكرة وسحبها بالحبال.. أما في شارع «ها يا ضنايا» فقد صارت نوافذ الطابق الخامس من العمارات أبواباً خارجية.

أما الشقق التي بقيت تحت الطابق الخامس... أصبحت مطمورة في التراب. كما إن أحدى أشجار السرو العملاقة.. طمرت ولم يعد يظهر منها فوق التراب سوى جزء بسيط جداً من قمتها وكأنها لنبتة «خبيزة».

بما أن الأمور سويت هكذا.. حسنٌ جداً.. والباقي سهل جداً.. وهو نقل الأتربة من شارع إلى آخر فقط. هذا العمل أيضاً تعهده عمي وبما أنه يحبني كثيراً.. قال لي:

ـ هذا العمل سأتركه لك حتى تربح بضعة قروش.

سألته عن العمل الذي سأقوم به:

ـ ستنقل الأتربة من الشارع على اليمين.. إلى الشارع الواقع إلى اليسار.

نفذت كما قال لي عمي.. وأنهيت العمل. وإذا بسكان شارع «ها يا ضناي» تقدموا بشكوى إلى البلدية خلاصتها أن بيوتهم بقيت تحت التراب. ولا يستطيعون الخروج من منازلهم.

جاءت لجنة البلدية للتحقق من الأمر.

فسألوني: أين الشارع؟

لأن الشارع ها يا ضناي، أصبح تحت التراب كلياً. ولم يعد أحد يعرف أن في هذا المكان يوجد شارع. أما أنا.. فقد حسبت حساباً لكل طارئ.. لربما جاء أحد وسأل عن عنوان ما.. لذا وضعت خطاً أبيضاً فوق اسفلت الشارع تماماً.. قال المهندس الفني:

ـ ولك حبيبي أنت ملأت شارعاً خطأ وكان من الواجب عليك أن تملأ شارع سلام قولاً.. أما هذا الشارع من المفروض أن ينخفض مستواه.

قلت له:

ـ قالوا لي إملأ الشارع اليمين.

قال المهندس:

ـ نعم اليمين.

قلت وأنا أمدّ ساعدي نحو اليمين:

ـ هذا جيد.. انظروا أليس شارع ها يا ضناي إلى اليمين؟

وقف المهندس أمامي ومدَّ يده اليمنى وقال:

ـ انظر اليمين هنا. وشارع سلام قولاً أصبح إلى اليسار

وبما أننا وقفنا متقابلين. كان يمينه يساري ويميني يساره.

ـ لم يقولوا لي كيف أتجه وأحدد اليمين قالوا الشارع الذي على اليمين.

كنت قد ملأت الشارع.. كلياً وطمرته.

قال شو: سأدفع لهم الضرر.. الجميع يخطئون ولا أحد يفتح فاه. أما

أنا وبسبب خطأ صغير وحيد وخلال أربعين عاماً سيجعلونني أدفع الضرر. وكان ردي أن رفعت لوحة البلدية التي كتب عليها شارع «سلامٌ قولاً» وعلقتها على شارع «ها يا ضناي» الذي نقلت لوحته إلى شارع سلامٌ قولاً.

في اليوم التالي جاء المهندس ثانية، ونقل نظره بين اللوحتين وقال:

ـ تمام ولك عمي.. لم تنفذ خطأ.. هذا هو الصحيح.

وهكذا أغلقت هذا الباب وصرت متعهد طرق.

٤

امرأة لستة أشخاص

أفضل ما تقوم به في السجن كي تنسى همومك وتملأ أوقاتك هو الاستماع إلى مشاكل وهموم الآخرين.. لهذا السبب.. وبعد التفقد المسائي ووضع السجناء خلف القضبان الحديدية.. حيث ينتظرون القادمين الجدد.. وهذا بحد ذاته انتظار فيه فضول أكثر مما هو انتظار عادي. كل ليلة يدخل السجن من عشرين إلى ثلاثين شخصاً. وبما أن الوجوه لا تشبه بعضها. كذلك مغامراتهم يختلف بعضها عن البعض الآخر.

فالبعض يبدأ بسرد قصة حياته وسبب دخوله السجن فور استقراره بين المساجين والبعض الآخر يبقى صامتاً لمدة من الوقت ثم يبدأ بالسرد دون توقف.

من بين من دخلوا السجن تلك الليلة.. ستة أشخاص.. كان جرمهم مشتركاً وواحداً. ظلوا ساكتين على الدوام لم تخرج من أفواههم كلمة واحدة. خمسة منهم كانوا من منطقة واحدة.. ودل على ذلك ألبستهم المتشابهة وأحاديثهم.. أما السيد برهان الدين... الرجل المسن الذي لم يعقل أن يكون من هذه المجموعة أبداً لا من حيث العمر ولا المكانة. كان بين الحين والآخر ينظر إلى ثيابه المهلهلة أو يركز نظراته على أنفه... وكان من بينهم رجل مسن نوعاً ما، ومن منطقة نائية.. كانوا يسمونه «جليل».

دعاهم رئيس المهجع إلى احتساء الشاي وقال لهم حمداً لله على السلامة. وأعطى كلاً منهم كأساً من الشاي، بعد ذلك جاء نادل «الساحة» أو المهجع وقال لهم «خلَّصكم الله» ووضع أمامهم طبقاً.

كل من دخل السجن غير هؤلاء كنا نعرف قصتهم.

أما هؤلاء الستة فلم نستطع أن نأخذ منهم ولو كلمة واحدة. ولم نعرف سبب دخولهم السجن. كنا نظن أنهم يتعاملون بالتهريب. واحد منهم كان شاباً حالته مزرية.. يحتذي بابوجاً ممزقاً دون أن يلبس أية سترة وكان يردد دائماً:

ـ موجة النساء.

كيف لرجل مثل السيد برهان الدين أن يكون مع هذه المجموعة وهو في هذا العمر ويتعاطى مشاكل النساء.

من الحكمة ألا تعرِّض نفسك لمثل هذه المواقف وتبادر إلى السؤال. اتركه فلا بد له بعد أيام.. أن يبادر هو شخصياً للبحث عن شخص يفتح له قلبه.

وكان أول من حاول الاقتراب منه ذاك الشاب الذي يمشي مائلاً وكأنه يحمل في يده شيئاً ثقيلاً.. وقد تحدب ظهره قليلاً. هذا الشاب يدعى «فاتح».. قال أنه جاء إلى استنبول قبل ثمانية أشهر. وبعد أن بقي عاطلاً عن العمل مدة ثلاثة شهور.. عمل كاتباً في أحد الفنادق في «توب خانة».

وكما روى حادثته كانت كالتالي:

في إحدى الأمسيات جاء الحاج خليل هذا إلى الفندق.. سجلته في صفحة النزلاء وملأت استمارة البلدية. بات تلك الليلة عندنا لكنني في اليوم التالي.. وجدته على حال غير طبيعية. يروح ويجيء.. هنا وهناك. لا بد أن مشكلة ما قد شغلت فكره مثله مثل الكثيرين الذين عرفناهم

أثناء عملنا ككاتب في الفندق. الرجل حاج.. ولا أستطيع اتهامه بشيئ.

الطابق الأرضي من الفندق خصص للمقهى. جاء نادله إليَّ وقال:

ـ ولك ابني فاتح. هذا الرجل الحاج «جليل» هل له مشكلة ما. كي أتحدث مع كميش مصطفى.. ليذهب إليه ويعرف قصته.. انظر إنه يدور كالمروحة.. مسكين هذا الفقير.

ـ أراه يروج ويجيئ كأن دبوراً قد لدغه. يبدو أن علَّة هذا الرجل شيء مختلف.. فهو قبل كل شيء حاج.. ثم أنه في الخامسة والخمسين من عمره.. ومتزوج هكذا دوِّن في هويته.. فهل يقع رجل مثله في مشكلة نسائية؟

قال النادل علي:

ـ ولك يا أهبل.. العلة تكمن في أمثال هؤلاء.. فهم لا يتحدثون مع أحد ولا يفتحون قلوبهم لمخلوق يظلون هكذا يدورون ويلفون. انظر ألا يبدو كالوحش؟ عيناه تلمعان «كالنور الكاشف». الأفضل.. إحكِ مع «كميش مصطفى». لربما يجد دواءً لعلته وكميش مصطفى هذا «دلال نسائي» مشهور.

في إحدى الأمسيات كان جليل أفندي يجلس في المقهى وقد أسند أنفه على زجاج النافذة.. ينظر إلى النساء بعيون شرهة.

اقتربنا منه.. أنا والنادل علي.. تحدثنا في أمور كثيرة.. عن التلال والأنهار.. وإذا بأسارير الرجل قد انفرجت وفتح قلبه وصار يحدثنا.

سأله علي:

ـ هل جئت إلى استنبول من أجل عمل ما؟

قال جليل أفندي:

ـ الشكر لله أنهيت عملي.. ولكن عينيَّ تبحثان عن عمل آخر. أنا غريب هنا.. ما من صديق يرشدني إلى الطريق في هذه الغربة الموحشة: عماه الله.. ثم غمز بإحدى عينيه.

سأله النادل علي:

ـ ومتى ستعود يا جليل أفندي؟

ـ أنتظر قسمتي.. قلت في نفسي: يا رجل بما أنك جئت إلى استنبول.. كل شيئاً من الحلاوة واعمل ما يطيب لك.. ثم تعود.. ولكن أين..؟

لقد كشف عن خفايا ما يريد «لا من شاف ولا من دري».. البلد بعيد ما من أحد يراه هنا.

قال النادل علي:

ـ لا تأكل هماً.. لن نبوح بأي سرٍّ تقوله على الإطلاق.

جليل أفندي عنده شرط: المرأة يجب أن تكون شقراء.

قلت الليلة القادمة سنحتفل.

أسرعت مباشرة إلى كميش مصطفى ولكن أين سأجده؟

فلا متجر عنده ولا مكتب.. وكميش مصطفى حرفي سيار.. متنقل. وضعتُ له خبراً في الأماكن التي يمر بها. لكنه لم يحضر.. في اليوم التالي وجدته في الفندق الذي ينام فيه.

ـ آمان ولك كميش.. أرنا إنسانيتك.. جاء من الأناضول مواطن تتأجج النار في داخله.. سيعطيك كل ما تطلبه.. يكفي أن تكون شقراء.

قال كميش:

ـ أريد ستمائة ليرة.

صرخت في وجهه: هوست ولك هل نشتري منك حقلاً بسند تمليك؟

قال كميش:

ـ الأسواق جامدة.. والضباب الكثيف يلف المنطقة. في الليلة الماضية.. نشطت ضابطة الأخلاق بشكل كثيف جداً. ولم تترك مكاناً في استنبول.. من بارات وفنادق ومنازل إلا وداهمته. جمعوا كل النساء.. كلهن الآن في المشفى.. ولم تبق إمرأة واحدة في السوق.. هذه الضائقة تدوم خمس عشر يوماً.

وبعدها نبدأ بالتوسع والانتشار.

ذهبت إلى النادل علي وقلت له:

ـ ولك أخي هذا «ع» يريد ستمائة ليرة.

قال: ولك أخي.. ما رأيك لو نقوم نحن بهذه المهمة ولا نترك له هذا الربح الكبير.

قلت: ولك عيني.. هذا شيئ خطير.. ربما درجوا اسمينا في هذا المجال.

قال: قيامنا بهذا العمل ولمرة واحدة لا يرتب كل هذه السلبيات ثم إننا لا نريد المال.. نحن أيضاً نلهو بعض الشيئ.

قلت: حسناً يا صديقي.. ولكن أين سنجد إمرأة شقراء؟

ـ في هذه النقطة بالذات تكمن الصعوبة.

ـ نعم يوجد صعوبة. إذا كان جليل أفندي متلهف كثيراً ويتحرق لهذا العمل. فهل يعني ذلك أننا غير متلهفين مثله؟ افتح داخلي وانظر. إن صدري يلتهب وتتصاعد منه الأدخنة كأنها مدخنة «يافور». (باخرة حربية عسكرية مشهورة).

قال النادل علي:

ـ لنسأل قبل أي أحد «زكي الملحن».. ربما يجد لنا واحدة.

وزكي الملحن هذا.. يبيع الألحان وينشد الأغاني والأشعار وهو من زبائن الفندق الذي أعمل فيه على الدوام.

عرضنا الموضوع على الملحن زكي فقال:

ـ أعرف واحدة ولكنها من عائلة غنية ومشهورة فإن كتمتم السر ولم تثيروا حولها الفضائح يتم الأمر بأقرب وقت.

قلت: ولك أخي.. هل نحن وحوش حتى نجعلها تخاف إلى هذا الحد.. ولماذا تخشانا يعني؟

ولك يا أخي.. أقول أنها من عائلة كبيرة.. استحموا جيداً ونظفوا أجسامكم حتى عندما تراكم لا تجزع منكم.

اتفقنا على اللقاء في حي «محبلجي».. من يدري ماذا سيحصل.. شرحنا الوضع لجليل أفندي كي يكون جاهزاً. فإذا بالخوف يسيطر علينا جميعاً فنحن لم نر في حياتنا واحدة من عائلة كبيرة.. وليس في ذلك عيباً.. أنا شخصياً استعرت ثياباً من أحد نزلاء الفندق.. وأفضلنا احتراماً وتقديراً وهيبة وكبرياءً كان جليل أفندي.. ذهبنا إلى «محلبجي». وجدنا زكي الملحن والمرأة هناك.. آمان يا سيدي.. هذه ليست امرأة.. نحتاج إلى ألف شاهد حتى نصدق أنها إنساناً. إحدى عينيها غير موجودة على الإطلاق.. والعين الأخرى صغرت وصغرت حتى صارت كحبة العدس.. فمها مائل نحو اليمين وأنفها إلى اليسار.. عرض كتفيها يتعدى المترين. من يتصبح بها مرة يلازمه الشؤم أربعين عاماً.

مدت المرأة يدها.. وصافحتنا جميعاً. وقالت:

ـ سوزان.

بتجرد أقول.. ليس لها وجه إمرأة.. ولكن غنجها مختلف، فعندما تقول: سوزان.. كان صوتها يثير غرائزنا. يا امرأة هل درست هذا الغنج والدلال في المدرسة؟

قالت سوزان لزكي الملحن وهي تشير إلينا:

ـ فقط هؤلاء؟

قال زكي: هل هم كُثر؟

ـ لا.. ليس من أجل ذلك. سألت هل هناك غيرهم سيأتي؟

همس النادل في أذن جليل أفندي:

ـ ما رأيك هل أعجبتك؟

جليل أفندي:

ـ من ناحية الإعجاب أعجبتني.. ولكن لونها لم يرق لي.هل هناك من هي أكثر شقاراً منها؟

نقل علي رغبة الأفندي إلى زكي وهو الآخر إلى المرأة. فقالت:

ـ طيب.. إذا اتفقنا.. نحقق له رغبته.

اتفقوا.. فأخذت المرأة مائة وخمسين ليرة سلفاً. وقالت:

ـ الساعة الثامنة مساء نلتقي ثانية هنا في «محلبجي».. وذهبت. أما جليل أفندي فقال:

ـ لا أريد أن أخجل أمام هذه المرأة ذات الأصل العالي.. سأذهب إلى الحمام ثانية وأغتسل على أكمل وجه وأعود.

وقال النادل علي:

ـ أنا الآخر سأذهب لأحلق ذقني.. وانطلقا معاً.

أما أنا وزكي الملحن بقينا ندور هنا وهناك لتمضية الوقت.. وإذا بي وجهاً لوجه مع يونس وهو شخص من قريتنا.. تعانقنا وقبل كل منا الآخر.. قلت له:

ـ ولك يونس.. ماذا تفعل هنا؟

قال: أنه غادر القرية منذ شهرين. ليبحث عن عمل هنا.

صرخت في وجهه:

ـ ولك حبيبي بما أنك جئت إلى هنا.. فلماذا لم تزرني؟ لنمضي معاً أمسية رائعة.. وتتعرف على استنبول جيداً وغداً أجد لك عملاً مناسباً.

بتمام الساعة الثامنة إلا ربعاً تواجدنا في محلبجي.. صارت الساعة الثامنة والنصف. ولا أثر لسوزان.. قال جليل أفندي متشككاً.

ـ ولك شباب أخشى أن تكون هذه المرأة نصابة.. أخذت المال وذهبت دون رجعة.

قال له زكي الملحن:

ـ النساء اللواتي تعرفونهن يفعلن ذلك ولكن هذه المرأة من عائلة كريمة لا يمكن أن تكون مثلهن ولا تأتي.

قبل أن ينهي زكي كلامه وإذا بإمرأة شقراء تقترب منا اندست فيما بيننا وجلست.. ولولا عينيها المفقوءة ما عرفتها بفستانها الأحمر.. المرأة ذهبت فصبغت شعرها ودهنت وجهها وجاءت شقراء بحلة جديدة.

قالت: المبلغ الذي أخذته منكم لا دخل له بالحساب.. وهو عبارة عن مصاريف.

قال جليل واللعاب يسيل من فمه:

ـ ليكن ولك روحي. ماذا بعده.

والآن أين سنذهب؟.. المرأة لم يعجبها مكان وتقول: أنا من طبقة إجتماعية كبيرة «سوسيتي» إذا باغتونا سأنتحر.

ـ إلى أين سنذهب؟

ـ إلى يلدز بالاس.

ويلدز بالاس مكان في الهواء الطلق.. ترى النجوم من خلاله.

أخرج جليل أفندي المال وأعطاه للمرأة.. واشترى زكي الملحن خمس عشرة زجاجة من العرق وبعض المازوات الأخرى. ركبنا السيارة وبعد مسافة ترجلنا في أحد الأماكن واتجهنا نحو البرية.

ـ ماذا يسمى هذا المكان؟

ـ هنا هضبة الحرية.. كل شيء مسموح هنا.

قال جليل أفنندي:

ـ كون المكان فيه حرية.. شيء جميل.. ولكن لو جلسنا في حفرة مستورة ألا يكون أفضل من هذه التلة المرتفعة. أما من حفرة في هذا المكان؟

كانت المرأة تعرف المنطقة شبراً.. شبراً.. وكأن المكان حقل أبيها.

نزلنا إلى حفرة.. نجمة بالاس رائعة..! وبدأنا الشراب بنهم.. اشرب.. اشرب.. هذه الـ سوزان.. بنت العائلة الكبيرة.. راقصة ماهرة.. ولكن عذرها الوحيد أن إحدى رجليها قصيرة.. غاب جليل أفندي عن الدنيا وأصبح يهدر مثل أمواج البحر أما زكي الملحن فلم يعد إنساناً.. بل جوقة موسيقية.. في أنفه مزمار.. وعلى بطنه طبل.. ومن خدِّه دف وإيقاع.

وبينما كان جليل أفندي وسوزان يرقصان هازين كرشيهما.. ونحن نصفق وإذا بابن بلدي يونس يسقط على الأرض متكوراً.

ـ ماذا جرى لك ولك..

ـ آمان يا أغواتي.. منذ يومين لم أذق طعاماً.. عندما شربت العرق فقدت صوابي.. هذا الزقوم لم أشربه قبل الآن.

كانت سوزان.. ترقص من جهة وتفرغ الزجاجات في فمنا من جهة أخرى. التفتُّ إلى علي وإذا به يرتمي على الأرض.. يفرغ ما في معدته.. بعد فترة وجيزة.. قطعت أنفاسه وخفتَ صوته. ولم يكن نصيب زكي

الملحن أفضل من الآخرين فسقط هو أيضاً على الأرض.. أما أنا.. فبدأ رأسي يدور ويدور وكذلك مخي. ولشدة شخير جليل أفندي.. ربما سمعته زوجته وهي في بلدها.. كان الرجل يشخر وكأنه يرسل برقيات وعلى الأصح كأنه ثور مدبوح.

صرخت بأعلى صوتي: سوزان.

ما من مجيب.. لقد وقعت المرأة بين حجرين كبيرين. وضوء القمر ينير وجهها. المسافة بيني وبينها لا تتعدى الخمسة أمتار. ولكنني لا أستطيع اجتياز هذه الأمتار الخمسة حتى أصل إليها.

فقدت وعيي.. وأنا أردد سوزان.. سوزان. ولم أستيقظ إلا على صراخ وبكاء.. لقد طلع الصباح ونور الشمس ملأ التلة. وسوزان تصرخ:

ـ النجدة.. أما من أحد ينقذني..؟ إنهم يغتصبونني.

استيقظنا جميعاً.. ووقعنا على أرجلنا.

ـ اسكتي ولك.

لم تسكت.. والله لم يمسها واحد منا ولم يضع منا يده عليها حتى الآن.

كنا جامدين.. من شدة السكر ولا أحد يستطيع أن يهتدي حتى إلى أنفه.. فكيف لنا أن نهتدي إلى مكان المرأة.

ـ ولك أيتها السيدة.. لا تفعليها.. لا تصرخي هكذا..

ظلت تصرخ وتصرخ.. لها صوت أشبه بصوت الذئاب.. استنبول كلها ستسمعنا.

ـ النجدة.. عرضي وناموسي..

...على عرضك وعلى ناموسك.. أين كان عقلك منذ مساء البارحة حتى الآن؟ هل تذكرت ناموسك بعد أن أشرقت الشمس؟

ـ ولك.. هانم أفندي.. أبوس رجليك.. أفتديك بنفسي.

لا تصرخي..

وجليل أفندي ألقى بنفسه على قدميها متوسلاً:

ـ آمان يا سوزان هانم.. أنا بعرضك..

في نهاية الأمر قلت لهم:

ـ لنترك هذه المرأة ونهرب. هذا هو الحل الوحيد.

لم أنه كلامي.. وإذا ببرهان الدين هذا الأفندي.. يطل علينا.. وقال أنه بينما كان ذاهباً إلى عمله سمع صراخ المرأة. وهرع إلى المكان وعندما رأت سوزان هذا العجوز صرخت:

ـ بالله عليك يا أبي.. خلصني..

التفت الرجل صوبنا وقال وهو يتجه نحونا:

ـ أعداء الشرف والناموس.. الحقيرون.. أيها الوحوش.

ـ سر في طريقك أيها الأفندي.. الأمر ليس كما تظن.

والله يا سيدي.. قال أن الشرطة سمعوا صراخ المرأة.

وإذا بخمسة عناصر أحاطوا بنا من كل جانب.. قبضوا علينا واقتادونا مكبلين إلى المخفر. أما المرأة فكانت تقول:

ـ هؤلاء الستة اغتصبوني حتى الصباح.

ولك.. أين هذا العرض الذي تدعين؟ لم يستمعوا إلينا.. وكما ترى اقتادونا إلى هذا السجن.

بعد استماعي إلى فتحي الأحدب.. استمعت إلى الآخرين أيضاً.. كانت القصة واحدة تماماً.. كان جليل أفندي يقول:

ـ بعد الآن لن أستطيع العودة إلى بلدي.. لأن اعتباري أصبح لا

يساوي قرشين. ولك عمي.. لو أن اصبعي لامستها لقلت أنها على حق. كل الذين يأتون إلى استنبول يقولون: عملنا كيت وفعلنا كيت أنا الآخر لبيت نداء الشيطان وجئت إلى هنا. لم أزر استنبول منذ سبعة وثلاثين عاماً. أين استنبول وأين بلدي؟ قلت في نفسي.. لا أحد يسمع ولا أحد يرى ولا أحد يعيرك بالعيب.. يا أخي والله لو رأيت تلك المرأة لأسفت على بصاقك الذي تتفله على وجهها. قلت لتكن بعض المودة ليس إلا.

أما علي النادل فكان يقول: إن عمرها يفوق الأربعين، ولكنها صغرت سنها قبل هذه الحادثة بأمر من المحكمة. وصار عمرها سبعة عشر عاماً ونصف.

ويضيف لو أن الحادثة جرت بعد ستة أشهر لبلغت الثامنة عشر من عمرها وهذا ما يخفف من عقوبتنا.

أما الذي لا أفهمه هو وجود برهان الدين معنا في السجن

وبعد أن سمعت القصة منه أيضاً.. قال أن المرأة عندما شاهدت رجال الشرطة قالت لهم:

ـ هذا العجوز أيضاً كان معهم.. فأطبقوا فمي وخطفوني بالسيارة.

قالت ظلوا سكارى حتى الصباح.. هذا العجوز اغتصبني أولاً ثم تبعه الآخرون والغريب هو إجماع الخمسة على أن العجوز كان معهم أيضاً.

سألت زكي الملحن:

ـ لماذا كانت إفادتكم على هذا النحو؟

قال: ماذا نفعل يعني.. نحن عاجزون عن تكليف محام يدافع عنا.. على الأقل يستطيع السيد برهان الدين أن يفعل ذلك. وبما أننا شركاء في الذنب.. فسيعمد محاميه للدفاع عنا مرغماً.

كان المسكين برهان الدين لا يتحدث أبداً مع شركائه في الذنب.

في اليوم الذي سيمثلون فيه أمام المحكمة قال:

ـ لن أستطيع تحمل هذه الحقارة سأنتحر.

وللسيد برهان الدين ولدان وثلاث بنات.. وكلهم متزوجون.. وحفيده الأكبر من ولده البكر على وشك إنهاء دراسته الجامعية.. نزل الرجل إلى أسفل السافلين. كانت الجرائد تكتب «عجوز عنده سبعة أحفاد خطف قاصراً عمرها سبع عشر عاماً واغتصبها» كتبوا اسمه وطبعوا صورته على صفحات الجرائد.

يقولون أن محاميه جاء إليه وتحدث معه فقال:

ـ أعطاني المحامي فكرة.. سنرى إن كنا سنحل هذه العقدة أم لا؟

بعد أن مثلوا أمام المحكمة وللمرة الرابعة عادوا عند المساء وكنا في باحة السجن نهرول فك عناصر الشرطة القيود من أيدي الشركاء الستة وتركوهم عند مدخل المهجع وقبل ولوجهم الباب هجم الخمسة وفي طليعتهم جليل أفندي على برهان الدين وبدأوا يضربونه. بصعوبة بالغة انتزعنا الرجل من أيديهم وكان سبب غضبهم هذا وكما يقولون: أن السيد برهان الدين تحدث في المحكمة أمام القضاة وقال: يا سيدي.. لقد كذبت عليكم حتى الآن ولا أحد يستطيع أن يتهرب من القانون والعدالة. لذا سأقول لكم الحقيقة: أنا أحب سوزان هانم هذه منذ زمن بعيد. ولكنني لم أعجبها لأنني عجوز.. وتأكد لي أنني لا أستطيع العيش من دونها: ماذا أفعل؟ نفسي خضرة يا سيدي.. وهؤلاء الخمسة الذين ترونهم هنا هم أصدقائي بكل معنى الكلمة. وبعد أن شرحت لهم معاناتي قلت: «أيها الأصدقاء سأقتل نفسي بسبب هذا العشق. سامحوني». فأجابوني: «واي ما هذا الكلام؟ هل ماتت الصداقة؟ المرأة نستطيع أن نجدها في كل زمان ومكان.. ولكن روحك لا نستطيع أن نجدها ثانية. دعنا نخطفها من أجلك فإن عاشرتها ليلة واحدة..

سينطفئ هذا الحب الذي في قلبك» وذهبنا معاً وخطفنا سوزان هانم وهؤلاء هم شركائي في الذنب.. ولكن نيتي كانت صافية يا سيدي.. كنت أريد أن أتزوجها.

عندما كان السيد برهان الدين يقول هذه الكلمات للقضاة. تعجب الآخرون بينما كان زكي الملحن يصرخ:

ـ أكون قليل الشرف إن كان لا يكذب يا سادة.. أنا الذي أحضر هذه المرأة هذا الخنزير لا يعرفها، متى رآها وأحبها؟ ونحن لم نرَ وجهه حتى صباح ذاك اليوم.

أما كاتب الفندق فتحي الأحدب فكان يقول:

ـ ولك أخي والله سأجن.. منذ متى أصبح هذا لرجل صديقنا.

في الجلسة التي تلتها.. تغيرت الأمور كلياً.. حيث قال جليل أفندي في المحكمة:

ـ يا سيدي.. هؤلاء الأصدقاء لا ذنب لهم على الإطلاق. لقد عبروا لي عن محبتهم وخطفوا سوزان هانم من أجلي.. فعلتهم ليست سوى مساعدة الصديق.. حتى أن أيديهم لم تلمسها وعندما كنت أنام معها.. كانوا يراقبون المكان فقط.

بعد ذلك اتضح الأمر بجلاء: في الوسط ستة شركاء في الذنب، أيهم يتزوج سوزان هانم.. هو من سيخرج من السجن.

حتى أن أحكامهم على سوزان كانت تتغير مع مرور كل يوم وساعة.

فجليل أفندي الذي كان يقول أن عمرها أكثر من أربعين عاماً صار ينقص عامين أو ثلاثة مع إطلالة كل صباح حتى أنزل عمرها إلى السادسة عشرة.

ويونس ابن بلد فتحي الأحدب والذي جاء إلى استنبول ليجد عملاً

وجد نفسه متهماً في هذه الحادثة كطير علق على قضيب دبق.. فقد بدأ يقول:

ـ التوبة.. إنها امرأة شريفة وأقسم بأنه لم يلمس جسدها أحد من الرجال.

ودخلوا في صراع وجدل حول مكانة وشرف وجمال سوزان هانم مدحوها مدحاً لا حدود له. كل يوم كانوا يتقاتلون ويتضاربون من أجلها. أما السيد برهان الدين فيقول:

ـ فتاة مثل ملاك.

وقال فتحي الأحدب:

ـ ماذا يعني مثل ملاك؟ هي الملاك ذاته..

ستة أشخاص لم يستطيعوا اقتسام سوزان.. كل واحد منهم كان يدعي أن الخمسة الباقية قدموا له المساعدة من أجل سوزان. ستة رجال.. لم يستطيعوا تقاسم الذنب فيما بينهم.

المسألة الآن في يد سوزان لأنها هي التي ستختار واحداً منهم. فمن ستختاره سيخرج من السجن..

أصبح الرجال الستة في سباق مع بعضهم كي يتمكنوا من دخول قلب سوزان.. فتحي الأحدب يرسل لها رسائل الحب والغرام كل يوم، وجليل أفندي.. فتح لها باب خزينته. استمرت المحاكمة ثمانية شهور، في هذه الأثناء، كان برهان الدين قد طلق زوجته التي عاش معها ثلاثة وأربعين عاماً.

كانت سوزان قد اختارت برهان الدين زوجاً لها، في الوقت الذي كان فيه برهان الدين يخرج من السجن.. كان الخمسة الآخرون يقولون من خلفه:

- كوااات..

- عرص.. يقولون ذلك بأعلى أصواتهم من خلفه.

تخلص برهان الدين من السجن وحكم على الآخرين ثلاث سنوات وأربعة أشهر.

٥

المواطنون المحترمون

كانت الخادمة منصرفة لعملها في المطبخ.. وصاحبة البيت واقفة أمام المرآة تصفف شعرها من جهة، وتراقب عمل الخادمة من جهة أخرى.

فجأة وبينما كانت السيدة منهمكة في زينتها سمعت ضجة قوية أشبه بدوي انفجارمصدرها غرفة السيد صاحب المنزل الذي كانت جميع منافذه موصدة جيداً، أسرعت الزوجة نحو باب غرفة زوجها وهي تصرخ.

ضربت الباب بجمع يدها ونادت يا سيد.. سيد... سيد.

لم يستطع أحد معرفة ما جرى داخل المنزل، حتى رجال الشرطة لا يستطيعون حلّ هذا اللغز الذي يشبه إلى حد ما جزءاً من فيلم بوليسي. تساءل الناس هل قتل أحد نفسه داخل هذه الغرفة؟ وهل أقدم أحدهم على قتل شخص ما؟ وهل الشخص الموجود داخلها مجنون فاقد العقل؟ الحقيقة لم يكن ما حصل من كل هذه الاحتمالات.

كاان صاحب المنزل رجلاً سياسياً، ومن عادته أن يخرج في جولات داخل المدينة ليشرح لسكانها سياسة حزبه. لقد غصَّت ساحة المدينة بالوافدين من القرى المجاورة والنائية. ولم تعد تتسع لهذه الجماهير الغفيرة التي بدت كأمواج متلاطمة. وقف السيد على منصة عالية وخاطب الجمع المحتشد قائلاً:

أيها المواطنون الكرام

لقد تراءى لي أن هذه المدينة الجميلة بموقعها ومناخها وسمائها ومياهها تمتلئ يوماً بعد يوم بالأشخاص القذرين المنحلين خلقياً.

أيها المواطنون المحترمون

لقد شوهت الملابس التي يرتديها هؤلاء الناس جمال ورونق مدينتنا. لقد قضوا على سياستنا السياحية، التي نسعى بكافة الوسائل والسبل إلى استقطاب السائحين. فإذا شاهد أحد السائحين أمثال هؤلاء، فأول عمل يقوم به هو مغادرة هذه البلاد، والدعاية خارجاً إلى ما يسيء إلى الوطن والأمة.

أيها المواطنون المحترمون

أضيف لذلك، أن الروائح الكريهة جداً التي تصدر عن هؤلاء تخرش الأنوف.. لو أغلقتم أنوفكم بأصابعكم أو بمناشفكم أثناء مروركم بهم، فإن الرائحة تظل عالقة في الأنف لأكثر من شهر.

أيها المواطنون المحترمون: إن هذا الازدحام يجعل العيش صعباً ومستحيلاً في هذه المدينة. وكما هو معلوم لديكم.. إن هؤلاء الأشخاص ليسوا سوى أولئك القرويين الذين يتركون قراهم وزوجاتهم وأولادهم دون إحساس بالمسؤولية، ويزحفون إلى المدينة أفواجاً أفواجاً. تتساءلون ما هو أثر هذا الازدحام عليكم؟ انظروا! لم يبق لكم أسرة في المستشفيات، واختفت أطباق الحليب لدى بائع السحلب، ولم تعد ثمار الكوسى تكفي أفراد الشعب. هؤلاء أيها الأخوة المواطنون ألحقوا الضرر بالأمن الغذائي الوطني والاقتصاد المحلي. حيث هجروا حقولهم الخصبة لتصبح جرداء قاحلة. وشكلوا بعملهم عبئاً ثقيلاً على هذه المدينة.

أيها المواطنون المحترمون

كونوا على ثقة أننا نكثف جهودنا لوقف هذه الهجرة الخطيرة. يجب

أن يبقى أبناء الريف في قراهم. وكما قال أجدادنا «المتزوج في منزله والقروي في قريته». ومن لا يملك منزلاً يجب أن يسكن جحر الفئران. بناء عليه سنوقف الهجرة إلى المدينة مهما كلفنا ذلك. أما التدابير التي نزمع اتخاذها فهي: نشر دوريات من الشرطة في مراكز انطلاق السيارات، ومحطات القطار، والموانئ الجوية والبحرية، وسنفرض على الوافدين من المناطق البعيدة ضريبة «وطأة القدم»، وغيرها من التدابير القاسية.

في اليوم التالي ذهب هذا السيد إلى إحدى النواحي، وخاطب القرويين في ساحة تلك البلدة قائلاً:

أيها المواطنون الأعزاء جداً

أقول لكم قبل كل شيئ، نحن نثق بكم أكثر من ثقتنا بباقي الفئات، لأنكم تشكلون ثلاثة أرباع مجتمعنا. نعمم أيها الأخوة القرويون، أيها المواطنون المحترمون جداً. أؤكد لكم أنه من الآن وصاعداً لن يُهمَلَ القروي كما كان سابقاً. وكما يقول المثل «القرويون سادتنا». هذه المقولة ستطبق بكل معانيها، وسوف تصبح حقيقة ساطعة.

أيها المواطنون المحترمون

أنا مثلكم من أصل قروي وابن قروي. بعض المواطنين يتذمرون من نزول القرويين إلى المدينة.. هؤلاء مساكين لا يعرفون ماهية التاريخ والعلم والمدينة والاقتصاد.

أيها المواطنون المحترمون

الهجرة من الريف إلى المدينة حدث يسعدنا إلى أبعد الحدود، يبشرنا بالنماء والازدهار. هذا ما حصل في بريطانيا في القرن العاشر.

* * *

في اليوم التالي، انتقل السيد السياسي وتحدث أمام التجار قائلاً:

المواطنون المحترمون، الأخوة الأعزاء: كما هو معلوم لديكم، فإن إقامة الرفاه الإجتماعي في بلدنا واجب علينا جميعاً. ولا يمكن تحقيق ذلك، إلا بإدخال العملة الصعبة إلى بلدنا، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بزيادة نسبة الصادرات.

أيها المواطنون المحترمون: يقتضي الواجب إعطاء الصادرات الجانب الهام في اقتصادنا، وتقليص وارداتنا إلى أدنى حدٍّ ممكن. فالاستيراد يعني تسرّب العملة الصعبة للخارج، وإذا أنفقنا العملة الصعبة التي قدَّمتها الصادرات، فإن خللاً كبيراً يصيب ميزاننا التجاري، فتنخفض قيمة النقد، وهذا مصيبة من أكبر المصائب.

أيها المواطنون المحترمون والأخوة الأعزاء جداً.. لن يصيبنا مكروه إذا لم نستورد القهوة من الخارج.. ولن نموت إذا لم نشتر السيارات، ولن يضيرنا إذا استخدمنا مطرقة الباب دون الجرس الكهربائي، أو حجر التواليت دون البورسلان. من أولى واجباتنا تأمين العملة الصعبة عن طريق التصدير.

ثم أيها المواطنون المحترمون...

* * *

انتقل السيد في اليوم التالي للتحدث أمام التجار المستوردين فقال:

أيها المواطنون المحترمون: إن ما يُثّبت أركان الدولة ويجعلها تقف بقوة على أرجلها هو رفع مستوى الرفاه الاقتصادي للبلد. فلو حدثت اختناقات اقتصادية في أي من البلدان، وازداد الطلب على بعض الحاجيات أو السلع، فالمواطنون يتذمرون ويرفعون درجة احتجاجهم. ولا أخفي عليكم أن حزن المواطن يخجلنا ويؤلمنا كثيراً.

بناء عليه أيها الأخوة المواطنون: يجب أن نقدم للمستوردين قروضاً

كبيرة وكافية. ويجب أن تسود في البلد سياسة الرفاه، لأنه عندما تنخفض نسبة الواردات، يحدث عندها ضائقة اقتصادية.. والضائقة المالية تنشط السوق السوداء. وهذا بحد ذاته يؤدي إلى ارتفاع الأسعار. ويبدأ الناس المتاجرة بالتهريب وهذا بدوره يفسد أخلاق الشعب. لهذا أيها المواطنون المحترمون، يجب أن يكون الاستيراد إلزامياً وواجباً. يقول البعض: يجب وقف الاستيراد، والاعتماد على التصدير لتأمين العملة الصعبة. الذين يسوِّقون هذا الكلام هم أناس أغبياء لا يعرفون شيئاً في التجارة والاقتصاد.

فإذا لم نشتر بضائع الآخرين، فهل يشتري الآخرون بضائعنا؟ كلا! لن يشتروا.. سنشتري منهم السيارات وعلب الحليب كي نبيعهم الفستق والدخان والبلوط والحلزون. وإذا لم نشترِ، فلن يشتروا أيها المواطنون المحترمون «خذي يا وردة، أعطني يا وردة».

* * *

في اليوم التالي انتقل السيد السياسي ليتحدث أمام أعضاء غرف التجارة واتحاد التجار:

أيها المواطنون المحترمون: لا تعرف البلاد التقدم والنمو إلاَّ بواسطة التجار. هناك بعض المساكين ضعاف العقول يريدون فرض رسوم جمركية عالية على البضائع المستوردة، من أجل ماذا؟ يقولون لحماية الصناعة الوطنية.. وإحكام الرقابة الصناعية..

أيها المواطنون المحترمون: هناك من يقول أنه إذا انعدمت الرقابة والمنافسة في أي نظام، ينعدم معها التقدم والنمو. وهذا مرفوض، يجب أن نلغي الرسوم الجمركية ونطلق حرية الاستيراد.

ثم تحدث أمام جمهور من العمال فقال:

أيها الأخوة العمال المحترمون، الأخوة العمال الأعزاء..... قبل كل

شيء أود الإشارة إلى فكرة خاطئة منتشرة في بلد زراعي مثل بلدنا وهي تنشيط الزراعة وحمايتها أولاً، والابتعاد كلياً عن الصناعة.. هكذا يريد الناس.. أيها الأخوة.. إذا جمَّدنا الصناعة ماذا سنفعل بكل هؤلاء العمال؟ ماذا سيحل بهم؟ العمال هم العمود الفقري لبلدنا... إن ألسنة الحاقدين تطال بالسوء الأركان الأساسية لبلدنا. ألا يمكن أن تسير الزراعة والصناعة جنباً إلى جنب؟ ألا يمكن أن تزدهر الزراعة والصناعة معاً..؟

* * *

ثم تحدث أمام الهيئات التدريسية في الجامعة والشباب والطلبة فقال:

أيها الأخوة المحترمون والمواطنون الأعزاء جداً، كم هو واضح في دستورنا التركي

إننا دولة علمانية، نفرِّق بين ما هو للدين وما هو للدنيا. وبهذا نظلٍ محافظين على علمانية بلدنا. أيها المواطنون المحترمون لن نترك مجالاً للرجعية لتعيدنا إلى الوراء، فقد قرر إنقلابنا أننا سنظل مرتبطين بالعلمانية.

* * *

وتحدث في بلدة نائية أمام جمع من الأطفال والرجال الملتحين وحاملي المسابح فقال:

أيها المواطنون المحترمون يظن بعض الجهلة أن العلمانية هي ضد الدين، وليس صحيحاً ما يقال بأن العلماني لا دين له. نحن أيها المواطنون المحترمون... علمانيون و...

وتحدث أمام جمعية المستأجرين قائلاً:

أيها المواطنون الكرام.. إن أصعب المشاكل وأهمها وأكثرها إلحاحاً في وطننا هي مشكلة السكن والتعرف عليها عن كثب. سنعمل على

إنهاء هيمنة صاحب العقار.. إن قليلي الوجدان من أصحاب العمارات، يتقاضون أجوراً مرتفعة جداً تثقل كاهن المواطن فيدفع المسكين ستمائة ليرة بدل إيجار غرفتين صغيرتين لا تدخلهما الشمس هما أشبه بقن الدجاج. إذا رُبط بداخلهما ثورين فإنهما لا يحتملان العيش فيهما.

هذا مستحيل أيها المواطنون المحترمون.. ففي البلدان المتحضرة يجب أن لا يتجاوز بدل الإيجار عشرة بالمائة من راتب المستأجر. فإذا توجب عليه دفع مبلغ ستمائة ليرة شهرياً، فمعنى ذلك أن راتبه سيكون ستة آلاف ليرة على الأقل. وبسبب جشع أصحاب العمارات وانعدام أخلاقهم، فقد أحجم شبابنا عن الزواج. وفضلوا العيش في غرف بعض الفنادق المعرضة للمداهمات المستمرة من قبل الضابطة الأخلاقية.. هكذا يصبح لهؤلاء سابقة وهم براء منها. أقولها بكل أسف، فقد وصلتنا أخبار كثيرة عن هذا الموضوع.. يجب أن تثقوا بنا وتعتمدوا علينا.. بأننا سنضع حداً لسلطة وجشع أصحاب هذه العمارات.

* * *

وتحدث في اليوم التالي أمام جمعية المدافعين عن حقوق أصحاب المساكن والعمارات فقال:

أيها المواطنون المحترمون: إنني أبشِّركم بخلاص نهائي قريب من ظلم وأنانية المستأجر. إن بدل إيجارات المساكن في بعض البلدان المتقدمة قد زاد بنسبة ألف وخمسمائة بالمئة. إن بدل الإيجارات القديمة غير عادل ولا يقبله منطق. إن جهودنا منصبة الآن للقضاء على هذه الفوضى وعدم الإنصاف. أيها الأخوة المواطنون: إن الموظف المتقاعد الذي يحشر نفسه مع أسرته في غرفة ويؤجر ثانية، فإن ما يتقاضاه لا يكفيه لتسديد ضريبة العقارات. وفوق كل ذلك فإن المؤجر أي صاحب البيت كثيراً ما يلجأ

إلى الفنادق والحمامات والخانات لأنه عاجز عن مطالبة المستأجر بإخلاء المأجور ليسكنه مع عائلته.

ثم تحدث في ساحة إحدى المدن التي خسر فيها حزبه الانتخابات قائلاً:

أيها المواطنون المحترمون: نحن موافقون على تحقيق المساواة بين الأحزاب، نحن نحترم الأفكار التي تتعارض مع أفكارنا. عناصر الأحزاب الأخرى هم أخوتنا، أحباؤنا.. أرواحنا، لن نختلف معهم، وحتى الآن لا يوجد أي خلاف عدا خلاف الرأي.

أيها الأخوة المواطنون: يجب أن نشد على أيدي بعضنا، ونتكاتف بقوة، ولنتعاون معاً على حل جميع مشاكل الوطن، لأن ذلك أمانة في أعناقنا جميعاً.

* * *

وتحدث في ولاية ثانية فاز فيها حزبه في الانتخابات قائلاً:

أيها الأخوة المواطنون... ليعرف أولئك القذرون... الساقطون.. الجهلة.. عديمو الأمانة وناكروا الجميل.. وليفهموا أنهم إذا حاولوا إثارة المشاكل وزرع بذور الفتن بين أبناء الشعب الواحد.. فنحن لهم بالمرصاد. أيها المواطنون المحترمون...

* * *

عاد السياسي إلى المدينة بعد جولة استمرت خمسة عشر يوماً.. وعلى الفور قصد منزل عشيقته «سونا» التي كانت تغار جداً من زوجته. لقد طالبته مراراً أن يطلق زوجته ويتزوج بها. كان السياسي يردُّ عليها:

«أيها المواطنون المحترمون.. سونا.. سونا... سونا... اسمعيني يا ضناي لا تتعصبي يا سونونتي... اسمعيني يا روحي.. حرام عليَّ.. إن كنت أحب سواك.. إن شاء الله سأبقى هنا لجانبك، ولن تستطيع قوة زحزحتي

من بين ذراعيك. اسمعيني يا سونتي.. عندما تزوجت تلك المرأة كنت جاهلاً.. طفلاً مراهقاً.. أحبك يا سونتي.. انظري أيها المواطنون المحترمون.. لولا أولادي يا سونا لكانت تلك المرأة حرام عليَّ.. المواطنون المحترمون»..

* * *

عاد السياسي في اليوم التالي إلى منزله.. إلى جانب زوجته.. وبما ان الزوجة تعلم أن لزوجها عشيقة. بدأت بالشجار معه.. قال السياسي لزوجته:

ـ المواطنون المحترمون.. أنا

أصابت الحيرة الزوجة فقالت:

ـ بماذا تهذي يا سيد؟

ـ أنا يا زوجتي العزيزة لا أعرف سواكِ... ليأخذ الله روحي إذا... الأخوة المحترمون...

ـ ما هذا المواطنون المحترمون؟ ماذا تقول يا سيد؟ حسناً وتلك المرأة العشيقة؟

ـ ولك روحي نزوة مرَّت وعبرت.. أنت يا زوجتي عمود العائلة.. المحترمون.. صدقيني يا زوجتي.. أنا لا.. أيها المواطنون المحترمون.

* * *

دخل السياسي غرفة نومه.. نظر إلى وجهه في المرآة الكبيرة.. فاحتار بأمره هذه الصورة... هذا الوجه.. وجهه أيها المواطنون المحترمون

انطلقت ضجة كبيرة من جرَّاء تحطم المرآة وتناثر شظاياها. فأسرعت السيدة نحو الغرفة التي خرج منها صوت الحطام. كان الباب مقفلاً.. ضربت الباب بجمع يديها وصرخت: يا سيد... يا سيد...

ثم سقطت مغمياً عليها أمام عتبة الباب... وصوت الأنين ينطلق من الداخل..

محـ..... محـ...... محـ....... محـ....

٦
ولادة في كل دقيقة

كان في اليوم الأخير من زيارته.. تجولوا معه في كثير من المعامل والمصانع.

ـ هذا المصنع ينتج في العام كذا طن من هذه المادة.

ـ وهذا المصنع يا أفندم.. ينتج في الدقيقة الواحدة كذا قطعة.

ـ وهذا المصنع ينتج في الساعة الواحدة كذا مادة.

في اليوم الذي قرَّر فيه مغادرة البلاد.. كان موكبه سيمر من الشارع الرئيسي للمدينة.. والجماهير التي حضرت لرؤيته احتشدت على جانبي الشارع أفواجاً أفواجاً... الشرطة.. وعناصر الدرك. كانوا يعملون على إبقاء الطريق مفتوحاً.

قاربت الساعة الحادية عشرة.. لم تظهر أية سيارة في الشارع. وبما أن جميع السيارات مُنعت من المرور في هذا الشارع الذي يظل مزدحماً بالسيارات طوال اليوم.. بدا هذا اليوم.. شارعاً غريباً على نقيض الأيام الأخرى. ولهذا السبب أصبح غاصاً بالجماهير التي تعيش غربة الشارع الرئيسي في المدينة.

نشطت عناصر الشرطة كثيراً.. وأضحت حركاتهم رشيقة إلى أبعد الحدود... أكثر مما كانت عليه في الأيام السابقة وكانوا في ذلك اليوم أشبه بسكين صقل حده حديثاً. وعلى الجانب اليساري من عناصر الشرطة.. انتشر الكشافة بألبستهم الموحدة والجميلة.. ونظامهم البديع،

وقد حملوا آلاتهم الموسيقية النحاسية.. التي أخرجوها حديثاً من خزائنها.. فكانت تبهر العيون من شدة لمعانها تحت أشعة الشمس.

بعد الكشافة.. اصطف أطفال المدارس على جانبي الشارع وهم يحملون الأعلام الورقية فرحين لأن المدارس تعطلت والدروس توقفت هذا اليوم.

كانت الجموع المحتشدة.. تتزايد وتتوافد لتقف خلف هؤلاء. ولولا حاجز الدرك والشرطة لامتلأ الشارع والساحة معاً.. وبين حين وآخر.. كانت عناصر الشرطة تدفع الحاضرين نحو الخلف.. ليظل الشارع مفتوحاً. وفجأة اقتربت سيارة من خلفهم.. مطلقة منبهها دون توقف. كانت سيارة تكسي قديمة. وكان سائقها يزمر من جهة ويصرخ بالمحتشدين من جهة أخرى وإلى جانبه رجل أخرج رأسه من نافذة السيارة.. كأنه غارق في بحر من العرق.. يصرخ على الدوام.

- أيها السادة وِلادة، وِلادة.. أفسحوا لنا المجال.

وصار كل واحد يكرر للآخر هذه الكلمات.

- افتحوا الطريق..

- يقولون وِلادة.

- أيها المواطنون.. هنالك امرأة جاءها المخاض.. افتحوا الطريق.

اختفت السيارة وسط الجماهير.. حاول المحتشدون إفساح المجال أمام السيارة.. فتدافعوا عدة مرات على شكل موجات.. ولكن هذه الموجات توقفت عندما اصطدمت بهراوات الشرطة.

اقترب مفتش الشرطة وهو يفرِّق المتدافعين بغضب من السائق وقال له صارخاً

- إلى الخلف.. إلى الخلف..

قال الرجل الذي أخرج رأسه من نافذة السيارة.

ـ وِلادة يا سيدي.. وِلادة..

أجاب المفتش الذي كان العرق يبلل وجهه وثيابه.

ـ ماذا نفعل يعني.. لتكن وِلادة

ـ سنذهب إلى المشفى..

ـ لا تستطيع المرور من هنا.. إلى الخلف.. إلى الخلف..

قال السائق:

ـ ولك أخي.. كل الطرقات مغلقة.. دعنا نمر من هنا

كانت السيارة مختفية وسط الجماهير المحتشدة، لا تستطيع التقدم إلى الأمام ولا تستطسع التراجع إلى الخلف.. قال المفتش للرجل.

ـ وجدت الوقت المناسب تماماً.

قال الرجل الذي أخرج رأسه من نافذة السيارة:

ـ المعذرة.. لم أستطع أن تحسب.. ولك أخي.. كيف لي أن أعرف أن أشخاصاً مهمين سيمرون من هنا وفي هذا اليوم بالذات.

كانت صرخات المرأة.. تطغى على كل الأصوات المشفقة الخارجة من أفواه الجماهير.. كانت ممسكة بطرف مقعد السيارة تصرخ وتصرخ.

سأل أحد أفراد الشرطة.. الواقف باستعداد.. وذو النظرة القاسية.. أحد أصدقائه الواقفين قربه:

ـ من القادم..؟

قال الشرطي المسؤول يعيب زميله:

ـ عيب ولك أخي.. ألا تقرأ الصحف أبداً. ألا تعرف القادمين من الذاهبين؟

ـ هل سأظل أتذكرهم على الدوام؟ أنا أنسى ماذا أكلت في صباح هذا اليوم ـ ها.. والله صحيح.. خرجت من البيت دون فطور.. لأن الزائرين قد كثروا والحمد لله في هذا الأيام.

ـ هذا جميل.. وماذا نريد أكثر من ذلك. ليأتوا ويروا بلادنا.. لقد كثفنا الدعايات والاعلانات إلى الدول الأجنبية.. كي يزوروا بلادنا.. فلم يذهب ذلك سدى.

ـ هل هذا القادم سائح؟

ـ لا ليس سائحاً.. لكنه يعتبر نوعاً ما من السواح ـ فعندما سيعود إلى بلده.. سيخبرهم عما رآه هنا. يحكى لهذا وذاك.. وهنا وهناك. وبعدها تبدأ أمواج السواح بالتوافد إلى بلدنا.

ـ ولك أخي. ما علاقة الرجل بالسياحة..؟ إنه من السلك الخارجي.

ـ بالتأكيد.

ـ طيب.. من هذا الشخص القادم؟

ـ مسؤول.. صاحب الجلالة.

ـ هل تقول مسؤول.. وهل الذي استقبلناه قبل يدعى مسؤول.

ـ هؤلاء كلهم مسؤولين.. مجرد كونهم أجانب صاروا مسؤولين.

وكذلك بالنسبة لهم أحمد ومحمد.. عندهم مسؤول.

ـ يعني.. هذا الإكسلانس يمكن أن يكون من أية ملةٍ كان؟

ـ إذا نظرت إلى ذاك الحرف العربي الموجود على قطعة القماش تلك، يجب أن تعرف أنه من أمة الإسلام.

ـ ولك أخي.. وهل الأجنبي من أمة الإسلام.؟

ـ يكون ذلك عند اللزوم.. هذا عمل الخارجية. يوماً تراهم أصدقاء وأحباب.. ويوماً يتحولون إلى أعداء.

صاح الرجل الذي في السيارة:

ـ يا عالم يا هو.. أفسحوا لنا الطريق لنمر.

صارت المرأة تعض شفتيها كي لا يسمع المحتشدون صوتها.

قال أحد الواقفين قرب السيارة:

ـ أنا لو كنت مكانك...

قال الرجل الذي في السيارة.

ـ ماذا كنت ستفعل؟

ـ وما أدراني.. عفانا الله من الوقوع في مثل مأزقك.

قال أحد أفراد البوليس:

ـ أسكتوا هذه المرأة.

نزل الرجل من السيارة قائلاً:

ـ يوجد ولادة ولك يا أخي.. وشق الطريق أمام الواقفين حتى وصل أمام المفتش وقال له:

ـ يا سيدي ما رأيك لو نمر من هنا.. إلى الطريق الآخر. زوجتي ستلد.. يا سيدي..

ـ ألم تجد طريقاً آخر؟

ـ كل المسالك مغلقة.. ولا نستطيع التراجع إلى الخلف.. مرورنا لا يتعدى الثانيتين.

ـ أرجوك دعنا نمر يا سيدي.

ـ أخشى أن يصبح هذا المنفذ طريقاً.. تمر منه كل السيارات

ـ ثانية واحدة:

ـ يا حبيبي.. ألا تفهم الكلام؟ لربما لحقت بك بعض السيارات كيف

سيكون الوضع.

- هنالك ولادة يا سيدي

- ولك عيني ماذا أفعل.. ولو كانت ولادة؟

عندما غادر الرجل إلى زوجته.. كان المفتش يتمتم كلاماً غير مسموع

- هل سألتني يا أخ؟

قاربت الساعة الثانية عشرة.. وكان التعب بادياً على الكشفيين فصاروا يتمايلون ويناوبون أرجلهم.. مرة يقفون على اليمين ومرة على اليسار لأخذ قسط من الراحة.. كان الصف قد تخلخل أيضاً.. قال رئيس الكشافة:

- أيها الأصدقاء.. حافظوا على استقامة تراصفكم.

قال أحدهم.

- كم ساعة علينا أن نحافظ على الصف.. منذ الصباح ونحن لم نتحرك مطلقاً.

- هل تريد أن يروننا هكذا.. عندما يترجلون من السيارة؟

- الدخول إلى الصف ليس كالدخول إلى الملعب يا أخي.. عندما تظهر السيارة نعود إلى الصف مباشرة.

صرخ رئيس الكشافة بغضب.

- آ آ آ.. ادخلوا الصف. وقال:

- هل يوجد في قربتك قليلٌ من الماء؟

قال جاره

- لا.. كان الماء مقطوعاً في المنزل

- أكاد أموت من العطش؟

ـ أنا أيضاً

جثا أحد الكشافة القرفصاء.. فانتهره رئيسه

ـ لا تخالفوا الصف.. من منكم عنده ماء يا شباب؟

لم يجب أحد.

كانت المرأة الحامل.. تسكت حين تزول النوبة.. وتعود للصرخ بأعلى صوتها عندما تعاودها نوبة ألم المخاض. في نهاية المطاف غضب زوجها وقال لها وكانت غارقة في بحر من العرق:

ـ اسكتي ولك.. لقد أحرجتنا أمام الناس.

وعندما بلغت الساعة الواحدة اقتربت تلميذة صغيرة من معلمتها وقالت لها:

ـ معلمتي.. معلمتي.. أفندم..

قالت لها بغضب والعرق يتصبب من وجهها.

ـ ماذا تريدين؟

ـ أريد قضاء حاجة يا معلمتي.

ـ غير ممكن!

سكتت الطفلة برهة ثم قالت:

ـ أريد قضاء حاجة يا معلمتي.

ـ الآن سيحضر ولك حبيبتي.

قالت الطفلة مقطبة

ـ أريد قضاء حاجة

ـ أقول لك غير ممكن.. اضبطي نفسك بعض الشيء

ـ لا أستطيع يا معلمتي.. تضايقت كثيراً

ـ الآن سيأتي..

ـ أنا متضايقة يا معلمتي.

وإذ بتلميذ آخر يقول .

ـ أنا أيضاً أريد التبول يا معلمتي.

قالت المعلمة لزميلتها:

ـ والله أنا الأخرى متضايقة.

ـ قال الرجل الذي في السيارة:

ـ ماذا يحصل لو مررنا من هنا وخلال ثانية واحدة

قال الرجل الواقف قرب السيارة:

ـ لو كنت مكانك..

غضب الرجل وقال:

ـ يا أخي منذ ساعة وأنت تثرثر.. أكيد لو كنت مكاني.. هل كنت تضع خلفك مروحة وتطير

وسأل قارع الطبل في طاقم الموسيقى وهو يضع عصاه داخل نطاقه صديقه الذي يلبس العمامة الكبيرة.

ـ كم الساعة؟

ـ الثانية إلا ربع

مسح صاحب العمامة العرق النازل من رأسه

ـ أنا بدي أعمل كات وكيت بهذا المسؤول..

سأله آخر:

ـ ماذا جرى؟

ـ أتذكر مجيئه المرة السابقة.. فقد كدت أموت من جوعي.

ـ حزامك مفكوك.. انتبه كي لا تدوسه.

سمع صراخ المرأة.. عندما أرادت الجماهير المحتشدة أن تسمع فريق الموسيقى.. وإذا بالمفتش يصيح:

ـ أيها المواطنون.. لا تضطروني إلى استخدام العنف معكم. وألقي قنبلة مسيلة للدموع.. لا تجبروني على ذلك.

ـ إنهم قادمون..

ـ إنهم قادمون..

قالت التلميذة الصغيرة وقد ابتلَّت الأرض من البول الذي كان يسيل على ساقيها.. قالت:

ـ ها هوذا قد جاء.. وأنا فعلتها وبدأت بالبكاء.

ظهرت السيارات نزل المسؤول من سيارته أولاً ثم نزل الباقون. بدأ الكشافة:

ـ تاتييري.. تاتييري تام.. تاريتا.. تاريتا تام

وبدأ طاقم الموسيقى يعزف لحناً يشبه اللحن الذي كانوا يعزفونه قبل مائة وخمسين عاماً استعداداً للمعركة.

قال أحد الحاضرين:

ـ إن عيني تدمعان..

وقال آخر: (لقد وقف شعر جسدي). واقشعر بدني.

أما صراخ المرأة وعويلها فقد كانا يطغيان على جميع الأصوات.

قال الرجل الواقف قرب السيارة:

ـ أنا لو كنت مكانك..؟

قال زوج المرأة بغضب:

ـ ماذا كنت تفعل ولك..؟

ـ إذا قلت.. هل تنفذ ما أقول.

ـ قل.. سأفعل ما تقوله لي.

ـ انظر يا صديقي.. أنزل زوجتك من السيارة. وامش معها.

ألا ترى هؤلاء التلاميذ الصغار.. خذ علمين من أيديهم.. واحد لك وواحد لزوجتك. ارفع العلم نحو الأعلى.. وادفع أمامك خمس أولاد. وكأنكما معلمان.. الأطفال أمامكم يصرخون «عاش.. عاش» وأنت تصرخ هكذا.. فإذا اجتزتم إلى الطرف الآخر.. معنى ذلك.. وصلتم بالسلامة.

ـ أمعقول هذا الكلام؟

ـ جرب ذلك يا أخي.

كان المسؤول مثل غيره من المسؤولين يبتسم وعندها تصاعدت موجة من التصفيق الحاد. ومع هذه الموجة، تدافعت الجماهير المحتشدة نحو حاجز الشرطة.. الذين رفعوا عصيهم «الجوبات». واتجهوا صوب موجة الجماهير التي اندفعت باتجاه الطريق.. قبل حضور المسؤول.

أنزل الرجل زوجته من السيارة. كانت آلام المخاض قد توقفت. في هذه الأثناء كان المسؤول يمسح وجه الفتاة التي تبولت تحتها.

قالت الفتاة صارخة:

ـ معلمتي.. إلا أن صوتها لم يسمع من شدة قرع طبل فريق الكشاف. في هذه الأثناء التقط زوجاً من الأعلام.. ودفع مجموعة من الأطفال أمامه.. باتجاه الساحة. ومشى وهو يصرخ: عاش.. عاش. في هذه الأثناء كانت آلام المخاض قد عادت للمرأة الحامل.. وأصبح الرجل مع الأعلام والأطفال في جهة.. وبقيت المرأة ملقاة على جانب الساحة.. وعندما

شاهد الرجل زوجته على الأرض غضب كثيراً وقال:

ـ تفوه.. الآن أصبحنا مهزلة أمام الناس.

كان المسؤول يقف بجانب المرأة.. فقال أحد عناصر التشريفات

ـ يا صاحب السيادة. عدد سكاننا يزداد بشكل غير معقول. يأتي إلى الدنيا طفل في كل دقيقة.. أردنا أن نطلع سيادتكم على هذا الانفجار السكاني الكبير. ولادة في كل دقيقة يا صاحب الجلالة.

٧

بطل الحرية

أخي المحترم السيد نور الدين أفندي.

وصلتني رسالتكم.. وكم سعدت لذلك كثيراً.. وسعدت أكثر لأنكم يا أخي تذكرتموني برسالة أرسلتموها لي.. ولا أستطيع أن أقول لكم مقدار سعادتي.

أخي نور الدين أفندي. أنكم كتبتم في رسالتكم التي أرسلتموها لي.. تقولون: إذا كان لي عمل مثل.. قهواتي.. بواب.. وخادم..

تقولون لي ذلك وتسألون

أخي المحترم نور الدين أفندي. وكما أنه من الاستحالة أن تجد عملاً مثل القهواتي والبواب والخادم. فهناك حاجة ماسة.. لكاتب في المجمعات الكبيرة ومن أجل هذا السبب فإنني أعلمكم بأنني سأجد لكم عملاً مناسباً. وإذا سألتم عن سبب ذلك لأنني شخصياً.. قضيت هنا أياماً قاسية جداً.. ولم أجد عملاً مناسباً إلا في العام الماضي. وكما تعلمون تركت مدرسة القرية في الصف الثالث.. وغادرت القرية أيضاً بعد أن امتنع حمزة آغا عن اعطائي ابنته «بنّاز». حيث طرقت باب القرية.. وكي أكون وفياً للوطن.. خدمت العسكرية.. بأمانة وإخلاص.. وبدرت مني أعمال جميلة.. جذب الانتباه لشخصي.. وترقيت إلى رتبة عريف.. وبعد ذلك أكلوا حقي ولم يرفعوني إلى رتبة الجاويش «الرقيب».. ومنذ ذلك الحين أحمل في أعماقي عصيان لكل ظلم.. ومنذ ذلك اليوم أيضاً.. تضخمت

شرايين المعارضة في أعماقي.. ولكن مع الأسف الشديد.. لم أستطع حتى الآن. أن أفتح قلبي وأفصح عن هذه المعارضة التي في أعماقي إلى أي إنسان.

أخي المحترم نور الدين أفندي: عندما تسرحت من العسكرية وجئت إلى هنا. بقيت بضعة أيام عند أولاد البلد.. وكان شخص يدعى «الطباخ عبدالله».. عملت عنده صانعاً مدة من الوقت. وبينما كنت أجلي الصحون كسرت بعضاً منها.. فطلب مني الطباخ عبدالله.. ثمن الأطباق التي كسرتها. اشتغلت معه أياماً طويلة دون أجر.. لأنه قطع ثمن ما كسرته. وبعد أن وفيت ديوني.. قدمت استقالتي وتركت العمل هناك.

ثم دخلت عند أحد القهواتيين.. وفي نيتي أن أدخر بعض القروش لأشتري وظيفة بواب من أحد أبناء البلد الذي كان ينوي الرجوع إلى البلد. ولكن طلبوا سعراً خيالياً.. وبعد أن فهمت بأنني لو أعمل لدى القهواتي أكثر من مائة عام. لن أستطيع أن أجمع المال الذي طلبه مني.

وبعد ذلك يا أخي المحترم نور الدين أفندي. قال لي صديق.. أتمنى أن لا يكون أفضل منك «هناك مجمع كبير.. يريدون رجلاً ليعمل عندهم. وإذا أردت آخذك إليهم» وبما أنني لم أر مجمعاً في حياتي.. زاد فضولي وذهبت معه. وبعد أخذ ورد.. اتفقنا على مبلغ أربعين ليرة في الأسبوع.. وظيفتي.. هناك نقل الأوراق إلى المطبعة.. وأقوم بتنظيف الإدارة.. من غسل ومسح.. وأعمل ساع.. روح وتعال..

ومع أن العمل في المجمع أعجبني كثيراً. وبما أن المبلغ الذي كنت أقبضه ما كان يكفيني.. وجب عليهم زيادة راتبي. لأن مصروف هذا المجمع يكون قد حاله:

في هذه الأثناء.. أدخلوا مدير الكتابات في المجمع إلى السجن.. لأنه كان قد زاد قليلاً من معارضته.. بدأوا بالبحث عن مدير جديد.. وكان

كل من يعرض عليه العمل كان يقول «لا أعمل.. الله يحفظنا». والذين وافقوا على العمل.. طلبوا مهر أمهاتهم راتباً. ولأجل هذا السبب بقي المكان خالياً.

أخي المحترم السيد نور الدين أفندي.. أنت لا تعرف ماهية هذا العمل. أي مدير الكتابات في المجمع.. ومدير الكتابات يعني.. تقبض راتبك دون أن تدخل أنفك في أي عمل كان.. ستنام فقط.. إما على ظهرك أو على صدرك أو جنابي.. ثم تدخل السجن. هذا هو كل الشغل. وإذا جاءت نوبة دخول السجن.. ستحمل فراشك إلى السجن مباشرة. وليس من صعوبة أخرى.

في الوقت الذي كان فيه أصحاب المجمع يبحثون عن مدير جديد.. قلت لهم: أنا يا سيدي.. ممنون منكم كثيراً.. وليكن الله ممنون منكم. ولكن الراتب الذي تعطونه لي، لا يكفيني.. لو تمسكوا حمالاً لنقل الورق من مكان إلى مكان لمرة واحدة.. تعطونه أكثر.. ولهذا أريد زيادة راتبي.

عندما قلت هذا الكلام يا أخي المحترم السيد نور الدين أفندي. وإذا بأحد أصحاب المجمع يقوم من مكانه ويصرخ في وجهي: إنني أتنفس من أنفي من كثرة البحث عن مدير للأعمال الكتابية. وأنا في هذه الحالة من الضيق.. سأسمع كلامك أيضاً؟.. هيا.. انقلع من هنا.

عندما كنت أخرج من المكان.. وإذا بالصاحب الثاني للمجمع يقف على رجليه ويقول لي: «توقف.. توقف» مشيراً لي بأصابعه.. وهو يبتسم. وأية ابتسامة.. لا تسألني وقال لي: هل تريد زيادة راتبك، إذا أصبحت مديراً للأعمال الكتابية.. نزيد راتبك هل تعمل بهذا؟.

قلت: «بإذن الله أقوم بكل شيء.. وأبيع أمه أيضاً».. عملت شهرين مديراً للأعمال الكتابية.. بعد شهرين.. جئت إلى المجمع وإذا بوجه أصحاب المجمع مقلوبة ومتمددة أكثر من شبر.. قال شو:

شكوا المجمع ثانية للمحكمة.. قلت لهم: «ولك روحي لا تهتموا بالأمر.. أنا الذي سأنام في السجن.. أنام وأخرج».

فقال أحد أصحاب المجمع: «ومن الذي يفكر بك..، من أين سنجد مديراً للأعمال الكتابية.. نفكر في هذا الأمر.. وليس في دخولك السجن..».

كان للمجمع أربعة مدراء يتناوبون الدخول إلى السجن.. ولكن بما أن الأربعة دخلوا السجن دفعة واحدة. وأنا الأخير سأدخل السجن عما قريب. لم يبق أحد يستلم النوبة في إدارة الأعمال الكتابية.

طلبوني في البداية إلى النيابة العامة فقال لي أصحاب المجمع «خذ بطاقة مدير الأعمال الكتابية حتى لا تشك النيابة بأمرك». فاشتروا لي ثياباً جديدة. ولأول مرة في حياتي وضعت ربطة عنق واشتروا نظارة لعيني.

وصرت حقيقة.. مديراً للأعمال الكتابية. فقال لي صاحب المجمع ونحن ذاهبون إلى المحكمة: «تحدث مع القاضي أو النائب العام.. بلغة واضحة جميلة.. حتى يظنك مديراً للأعمال الكتابية حقيقة».

وضعت النظارة على عيوني.. وركزت ربطة العنق جيداً على عنقي.. ودخلت الغرفة.. تحدثت بلغة رائعة.. احتاروا في أمري.. وقال الرجل الجالس في ذاك المكان: «أعمل هنا منذ سنوات طويلة.. لم ألتقِ بواحد كمدير للأعمال الكتابية.. وفيه كل هذه الفراسة» وأنا قلت له: «أعطاك الله العمر الطويل يا سيدي.. هذا شيء منكم».

خلال ذلك الأسبوع خرجت إلى المحكمة.. يا أخي المحترم السيد نور الدين أفندي.. لو كنت هنا.. ورأيت المحكمة.. كان قد حضر أكثر من ألف شخص ليسمع ما سأقوله للمحكمة.. الصحف كلها كانت هناك.

كانوا يصورونني على الدوام.. عندما رأيت هذه الجموع المحتشدة.. أعطاني الله قوة.. وبدأت بالحديث: «نريد حرية الطباعة يا سيدي

الحاكم». التوبة.. بدأ القضاة بالبكاء.. يقولون أنني تحدثت أكثر من ساعتين. في اليوم التالي.. كانت الصحف قد تزينت بصوري.. وكتبوا كل ما قلته بالحرف.. وجعلوا من الكلمة التي قلتها ألف كلمة.. ومن الجملة الواحدة ألف جملة.

عند خروجي للمحكمة للمرة الثانية.. استقبلني الجميع بتصفيق حاد.

لا يمكن وصفه أيضاً.. وتحدثت أمام المحكمة وكأنني مديراً للأعمال الكتابية منذ أربعين عاماً.. عندما خرجت إلى الصالون.. استقبلني الأهالي هناك بقوة.. وحملوني على أكتافهم. حتى صرت أطير فوق أصابعهم. ساعة أو ساعتين.. كانوا يصرخون: «عاشت الديمقراطية» أنا الآخر صرخت:

«أيها المواطنون.. اتركوني.. حاجة بقى.. لقد جعتُ كثيراً» حتى أنزلوني على لأرض.. كانوا يقولون عني «بطل الحرية».. ولا يقولون شيئاً آخر.

وبما أن بطل الحرية، يجب أن يدخل السجن.. فقد دخلت في محاكمتي الرابعة.

أخي المحترم السيد نور الدين أفندي. عندما خرجت من السجن كانت صحتي قد صارت على ما يرام.. من كثرة الغذاء الذي أخذته.

كل الصحف كتبت عني. وبدأ اسمي يلمع في عموم البلد. أينما ذهبت يستقبلونني.. ويصفقون ويقولون عني «رجل يساوي ستة أوقّات» (وزن).

ما ستفهمه.. أنني أصبحت مديراً للأعمال الكتابية على أكمل وجه. دخلت السجن مرتين.. أنا الآن في الخارج.. ولكنني لست مديراً للأعمال الكتابية.. الآن يستلم المناوبة صديق آخر. أنا في الاحتياط عندما يدخل السجن.. سأستلم منه الإدارة.

هذا الشغل.. مدير الأعمال الكتابية.. صنعة دقيقة.. تليق للرجال الكبار.. يجب أن تعرف كيفية المناقشة.. يجب أن تلبس ثياباً جميلة وأنيقة.. ويجب أن تملك نظارة وكرافيت.. ودائماً مع الرجال الكبار... ولا تتحدث إلا مع الوالي والأعلى منه مقاماً. في الليلة الماضية.. حضرت وليمة لدى الوالي.. في البداية.. حضرت إجتماع رؤساء الأحزاب.. أنا دائماً أذهب من وليمة إلى وليمة.. ومن كثرة الذهاب والرواح.. وكما ترى وتفهم من رسالتي: فقد زادت ثقافتي ومع أنهم لا يسمحون لي بالكتابة.. إلا أنني سأزيد من ثقافتي وسأكتب في المقامات العالية. تعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة أيضاً. انظر كتبت لك هذه الرسالة بالآلة الكاتبة. أليس حسناً؟

أخي المحترم السيد نور الدين أفندي.. تقول في رسالتك.. عجباً ألا يوجد في أطرافكم.. عمل... مثل قهواتي.. وخادم وبواب.. أنا لا أستطيع أن أعدك بذلك. أن تجد عملاً من هذا صعب جداً.. ولكن هناك حاجة ملحة وشديدة لإدارة الأعمال الكتابية.

الآن صدر قانون جديد من أجل مدير الأعمال الكتابية.. يجب أن يكون المدير يحمل شهادة الدراسة الثانوية.. ولكن بالنسبة لي.. ليس للقانون حكم رجعي لأنني قديم في المصلحة. وصار حق مكتسب لي. إذا جئت إلى هنا.. نستطيع أن نجد لك في إحدى المجمعات عملاً ما. أستطيع أن أفرض نفوذي في كل مكان. وسأرشح نفسي في الانتخابات المقبلة وسأصبح كبيراً. وعندما أصبح كبيراً سأذهب إلى القرية وأهدم بيت حمزة آغا على رأسه.

(*) ملاحظة: الرسالة ساخرة.. وكتبت بلهجة محلية قروية.. وأحاول ترجمة الرسالة كما جاءت.. والأسلوب يدل على ضعف الكاتب.. وفي الوقت نفسه تعطي صورة لروح النقد والسخرية عند عزيز نسين.. «المترجم».

٨

ممنوع

أُعجبنا كثيراً بالبناء الجديد الذي انتقلنا إليه. بعد أن كنا ولأعوام طويلة خلت، نعمل في ذلك البناء القديم المهلهل.

لدى دخولنا إليه كانت قطع الإسمنت.. والحجارة.. متناثرة هنا وهناك، والغبار يغطي أرض الغرف. حتى زجاج النوافذ لم يسلم منه بسبب أعمال «النحاتة». ولشدة فرحنا.. شمرنا عن سواعدنا وبدأنا بتنظيف المكان.. لقد سئمنا تلك البناية المهلهلة والمهدمة.. والتي كانت الفئران تلعب بين أخشاب سقفها المنخور.. وتصدر أزيزاً أثناء انتقالها فوقها من هنا إلى هناك.. داخل الدائرة.. كنسنا الأحجار والغبار. ومسحنا الزجاج. لم ينتقل معنا إلى عملنا الجديد.. سوى مديرنا القديم.. الذي عينوه في مكان آخر.. وقالوا أن هناك مديراً جديداً سيحضر عن قريب. قبل تسلمه العمل وصلتنا أخباره وشهرته.. ويقولون عنه أنه قاسٍ جداً.

جاء المدير الجديد. لم يكن عمودياً فقط بل عمودي على عمود.. ولشدة ما كان وقوفه عمودياً، بدا ظهره مشدوداً إلى الخلف.. وكرشه بارزاً نحو الأمام.. حلق شعره حلاقة «البارسي».. كانت رقبته على استقامة ظهره كما لو ضبطت بمسطرة. نظراته ثاقبة وعيناه تلمعان كشفرة «الجيليت». عندما تنظر إليه وأنت بمكانك.. تشعر وكأن الدم سينفجر من وجهه.

في اليوم الثالث من مجيئه إلى الدائرة.. أصدر أمراً من أربعة عشرة

مادة.. جاء في المادة الأولى:

«الأوامر ستطبق حرفياً.. والممنوعات ستنفذ. يقال أن الممنوع لا يستمر أكثر من ثلاثة أيام. هذا الكلام مرفوض، سنهدمه بنظام عملنا، وطريقة تفكيرنا العملي، وسنثبت خطأ هذه المقولة السائدة عندنا.. ممنوع يعني ممنوع. الأوامر تنفذ.. والممنوعات تطبق».

وقعنا جميعاً على القرارات الأربعة عشر.. بعد أن قرأناها حرفياً. وعند الظهر.. أحضروا لي القرارات ثانية.. وقالوا.. وقعت عليها ولكنك لم تكتب فوق توقيعك «قرأت وعلمت».

بدأت الأوامر تصدر في الأسبوع مرة أو مرتين. كنا نكتب أسفل كل أمر «قرأتُ» ثم نكتب تاريخ القراءة واسمنا وبعدها نوقع. وبذلك فهمنا أنه ليس للمزح أو الهزل باب مفتوح عند المدير الجديد. وأصبحنا لدى سماعنا صوته من آخر «الممشى» نرتجف هلعاً وخوفاً.

في اليوم الخامس لتعيينه في الدائرة.. جاء بائع طوابع أو الخطاط ووضع طاولته تحت الدَّرَج ودعانا للعمل. قال شو: أن المدير الجديد سيعمل على تجهيز مجموعة من اللوحات لدائرتنا.. فإن أوكل بها كلها خطاطاً واحداً.. تكون كلفتها عالية.. فأتى بهذا الخطاط.. واتفق معه على أجر يومي يكتب خلاله اللوحات المطلوبة.. مما يدل على أنه سيخطط لوحات كثيرة.. كان فضولنا يزداد مع مرور كل يوم وساعة ماذا سيكتب على هذه اللوحات. فاللوحات موجودة فوق باب كل غرفة.. وخارج الدائرة.

أثناء خروجنا من الدائرة مساء ذلك اليوم، كان الخطاط قد جهز عشر لوحات.. جميعها مدهونة باللون الأبيض وعلى شكل مربعات خشبية.. كُتبَ على إحداها من الجانبين باللون الأسود «ممنوع قطف الزهور».

فاحترنا لأمر هذه اللوحة.. لأن الدائرة كانت مبنية وسط «عَرَصة» لا حديقة فيها حتى ولا نبتة واحدة خضراء حتى يقطفها الإنسان.

بقي الخطاط وعلى مدى ثلاثة أيام.. يكتب مثل هذه اللوحة «ممنوع قطف الزهور».. في اليوم الرابع تغير مضمون اللوحات وصارت «ممنوع الدخول إلى الحديقة برفقة الكلاب». أية حديقة؟ وأين تلك الحديقة؟

لنترك اللوحات وشأنها.. ففي أحد الأيام فوجئنا أن حرم الدائرة .. يحاط من جميع أطرافه بسلك شائك.. انتهى العمل فيه خلال يومين. وأصبحنا محاطين بالأسلاك الشائكة. وصارت حدود العرصة أو «الحاكورة» الفارغة معروفةً. المكان الذي كنا نسميه حديقة.. كانت عبارة عن تربة.. ممزوجة بالكلس والرمل والحصى.. لا أزهار فيها ولا أشجار.. فقط من الناحية الخلفية بعض النباتات البرية مثل «القريص» و«أشواك الجمل».

بعد ذلك أشرف المدير شخصياً على تثبيت اللوحات في الأماكن المخصصة لها والتي كتب عليها «ممنوع قطف الأزهار» أمر بدق الأوتاد في أرض العرصة بشكل جميل نوعاً ما.. ثم أمر بوضع اللوحات التي كتب عليها «ممنوع دخول الحديقة برفقة الكلاب».

وهكذا أصبحت جغرافية دائرتنا على الشكل التالي: أسلاك شائكة تحيط بمساحة كبيرة.. فيها بقايا الاسمنت.. بقايا متناثرة من الرمل والكلس.. ولوحات ثبتت هنا وهناك. «ممنوع قطف الأزهار» و«ممنوع دخول الحديقة برفقة الكلاب».

كان الخطاط يعمل دون توقف. فاللوحات التي دهنها مجدداً.. كتب عليها «ممنوع دخول الحديقة بالسيارات».. ووضعت أيضاً على الأرض التي نسميها حديقة. أدهشنا تصرف هذا المدير. وتعليماته التي لا تتلاءم مع الواقع. فالمكان الذي تُرك ليكون مدخلاً كان ضيقاً جداً. ولا يمكن للسيارة أن تعبر منه إلى الداخل. كما أنه لم يرَ أية سيارة دخلت إلى هناك أبداً.

صبيحة أحد الأيام ولدى وصولنا إلى الدائرة شاهدنا ما حيَّرنا جميعاً. كانت لوحات جديدة قد وضعت داخل الأسلاك الشائكة.. بين الواحدة والأخرى من ثلاثة إلى أربعة أمتار.. كتب على كل منها: «:انتبه! ممنوع الاقتراب من الأسلاك الشائكة كي لا تتمزق ثيابكم».

حيَّرنا جميعاً عمل هذا المدير، ولم نكن نفهم مبتغاه. قال بعض الزملاء أن المدير سيجعل من الأرض المحيطة بالدائرة حديقة متميزة.. ولهذا فهو يأخذ كل الاحتياطات مسبقاً.. والبعض لم تعجبه الأسلاك الشائكة واللوحات. وآخرون كانوا يعطونه الحق في كل ما يفعله.

مرت الأيام والأسابيع تباعاً. ولم تزرع زهرة واحدة أو غرسة في أرض الحديقة.. وما زال الخطاط يعمل على الدوام. ويكتب اللوحات المانعة. صبيحة أحد الأيام.. جئنا إلى الدائرة فوجدنا لوحة فوق باب مدخل الدائرة كتب عليها «الدخول من هذا الباب ممنوع». ذهبنا إلى الباب الثاني.. فوجدنا لوحة أخرى كتب عليها «انتباه ممنوع الدخول من هذا الباب».

ذهبنا إلى الباب اليساري الموصل إلى الدرج.. وإذا بلوحة أخرى كتب عليها: «ممنوع الدخول والخروج من هذا الباب».

كثر عدد الموظفين وصاروا يبحثون عن باب يدخلون منه إلى الدائرة. فقال أحدهم:

- ولك شباب سنبقى في الشارع.

وقال آخر:

- لندخل من النافذة.

الدخول من النافذة ليس بالأمر الصعب.. وجدنا نافذة منخفضة يمكن العبور منها، حيث يجعل كل منا ظهره مطية لمن يريد عبورها إلى الداخل، ونسحب بعضنا واحداً تلو الآخر. لكن إذا عاد المدير وكتب على كل

نافذة «ممنوع الدخول من هنا». ماذا سنفعل؟ طبعاً لن ندخل من المدخنة.. قال أحد الزملاء:

ـ ولك أخي.. لا تبالوا بالممنوع ولا بأي شيء آخر.. هيا لندخل.. لن نظل في الشارع هكذا.

ولكننا.. كنا نخاف المدير.. لأنه كان يطلع علينا كل يومين أو ثلاثة.. بأوامر وقرارات.. نوقع عليها.. وفيما نحن في حيرة من أمرنا.. نبحث عن طريقة للدخول إلى الدائرة.. وإذا ببعض الزملاء.. الذين سبقونا إلى الداخل ينادوننا من النوافذ.

ـ ادخلوا من الباب الخلفي الصغير..

حتى ذلك التاريخ. كنا نجهل وجود باب صغير خلف البناية عبرنا منه إلى الداخل.. وكان مستثنى من اللوحات الممانعة.

الباب كان أشبه بباب خم للدجاج.. دلفنا من خلاله إلى القبو.. ومنه صعدنا إلى غرفنا.

بعد هذه الحادثة بعدة أيام.. جمعنا المدير في الصالون الكبير.. وألقى علينا محاضرة كبيرة.. ملخصها:

«كل ما أصابنا من مصائب.. سببه عدم تطبيقنا للممنوعات.. ويجب تطبيق الممنوعات بحذافيرها.. ومهما كانت الأسباب. وإلا فلن يبقى شيء اسمه نظام».

كان الخطاط أكثر الناشطين في دائرتنا. كنا نتكوَّم فوق رأسه صباحاً ومساءً.. لنشاهد الممنوعات التي سيكتبها. ذات يوم، فوجئنا بلافتة وضعت فوق رأس الخطاط، كتب عليها «ممنوع التحدث مع الخطاط والوقوف هنا في هذا المكان.. قطعياً».

في الوقت الذي.. كانت فيه اللوحات توضع هنا وهناك.. كانت

هناك حوادث تجري تدهش الجميع.. فبعد أن وضعت اللوحات المانعة لدخول الكلاب إلى الحديقة.. صارت الكلاب تضرب بطول الحديقة وعرضها لعباً.. وجرياً.. وعواءً.. وما حيرنا أن أي كلب لم يكن ليدخل الحديقة قبل وضع اللوحة. وكأن المكان اليوم قد أصبح حديقة للكلاب. والقادم إلى الدائرة في كل صباح.. كان يسمع جلبة وضوضاء كبيرتين.. مصدرهما الشارع.. كانت الأصوات تسمع عن بعد نصف ساعة.. «تعا.. كجو كجو.. تعال.. كجو كجو..» كان كل موظف يأتي إلى عمله ومن خلفه عدة كلاب. وبعضهم يحمل قطعة لحم أو عظم.. ليدخلهم إلى حديقة الدائرة.. مع أنني ما أحببت الكلاب مطلقاً. ولكن حباً غريباً نما في قلبي تجاهها. ولم أفكر أبداً أن أُدخل أنا الآخر كلباً إلى الحديقة.. ولكنني لم أجد هذا الكلب، فالكلاب الشاردة فُقدت من المدينة.. كان الزملاء يحضرون الكلاب كل صباح إلى حديقة الدائرة. وحدث أن خدعت كلباً أليفاً.. بواسطة قطع من اللحم والعظم اشتريتهم من القصاب.. أنواع كثيرة من الكلاب ملأت الحديقة.. كلاب كثيرة.. تنبح.. وتلعب.. تصول وتجول فيها.

في إحدى خطبه التي كان يوجهها لنا كل عشرة أيام.. قال: عندما منعتُ دخول الكلاب إلى الحديقة، وجد بعض الزملاء أن الأمر مُضحك. لكني كنت أعرف مسبقاً ماذا سيحدث لنا.. منعنا.. وهكذا كان.. ولو لم نمنع تصوروا ما كان سيحصل؟ لهذا يجب تطبيق قانون الممنوعات بحذافيره

قال مديرنا أنه لم يخرق ولو مرة واحدة في حياته أي قانون فيه ممنوع.

كانت تحصل في دائرتنا أحداث أكثر دهشة وحيرة، فزهرة الجمل بلونها الأزرق وبأشواكها المدببة صارت تقطف ويقول الزملاء المعارضون للمدير «نحن لا نفهم إلا هكذا»، ويقطفون تلك الأزهار البرية التي كانت

تجرح أصابعهم وأيديهم. إلا السيد «برهان» الذي كان يحب الأزهار كثيراً والذي لم يبق على إحالته إلى التقاعد سوى ثلاثة شهور فقط. كان الوحيد الذي لا يتجنَّى على تلك الأزهار البرية. ويشهد على ذلك يداه الخاليتان من الجروح والانتفاخات.

في صباح أحد الأيام جئت باكراً جداً إلى الدائرة.. كان السيد برهان أمامي على بعد خمسين متراً. دخل من باب الحديقة، واتجه صوب البقعة التي نما فيها القريص وأشواك الجمل. فاحترت من أمره. وقفت في إحدى الزوايا أراقبه.. ماذا سيفعل؟ وقف السيد برهان بين نباتات القريص، وبعد أن جال بنظره في كل الاتجاهات.. ليتأكد من أن أحداً لا يراقبه. أخرج من محفظته زوجاً من القفازات الجلدية ودس فيها كفيه.. وبدأ يقطف رؤوس القريص بغضب كبير.

عندها فقط.. عرفت لماذا لم تظهر الجروح والانتفاخات على يديه.. كان مديرنا يقول:

ـ ألست محقاً في تصرفي.. عندما وضعت قانون عدم قطف الأزهار، بدأ بعضكم يسخر مني. وقالوا هل يعقل أن نضع اللوحات المانعة في حديقة.. ليس فيها أزهار أو أي شيء.. إنهم يقطفون القريص وأشواك الجمل.. فكيف لو زرعنا بعض الأزهار.. ماذا كان سيحصل؟

قلنا له جميعاً:

ـ كلامك صحيح يا أفندم.

صار الجميع يفكرون كالمدير تماماً.. وقلنا:

ـ نحن لا نريد إلا مثل هذا المدير.

بعد عدة أيام.. بدأت سراويلنا وستراتنا تتمزق.. وصار كل منا يقول لزميله:

ـ آمان.. يا سيد أحمد.. بنطالك ممزق من الأعلى إلى الأسفل. حتى أن سروالك الداخلي واضح للعيان.

ـ لا تسلني يا سيد محمد.. علقتُ بهذه الأسلاك الشائكة المحيطة بالحديقة.. آمان.. أنت الآخر تمزق ساعد سترتك.

قاتله الله.. لقد علقت بالأسلاك الشائكة أيضاً.

كنا نحاول رتق ألبستنا بالشناكل أو الخيطان كي نستطيع الذهاب إلى منازلنا.. أنا شخصياً.. لم يبق عندي لباس واحد ألبسه.

عندما كنت أمر صباح كل يوم أمام اللوحات التي كتب عليها «انتباه.. لا تقترب من الأسلاك الشائكة.. ربما تتمزق ثيابك» وأقرأ اللوحة.. ينتابني فضول كبير وأقول في نفسي.. يا ترى كيف نبدو خلف الأسلاك الشائكة من الخارج.. أما الزملاء فلم يكفهم هذا الفضول.. بل صاروا يقفزون فوق الأسلاك الشائكة. ولم يبق شخص واحد يدخل ويخرج من الباب الرئيسي أبداً.. سوى العجائز. لأنهم لا يستطيعون القفز. ذات يوم أراد السيد برهان الذي سيتقاعد بعد ثلاثة أشهر أن يقفز فوق الأسلاك الشائكة.. فتراجع إلى الوراء وتراجع ثم قفز. لقد كان المنظر مضحكاً.. قبعته وحدها التي اجتازت إلى الطرف الآخر. أما هو فقد بقي معلقاً على الأسلاك، كفخذ عجل علقه القصاب بكلاّب. ولما خلصنا السيد برهان من الأسلاك.. كانت ثيابه قد تمزقت كلياً.

لم يكن في الحديقة أي أثر للأزهار.. لكنها امتلأت بالعربات بعد أن كتبت لافتة ممنوع دخول العربات إليها. حتى الكلاب لم تعد تجد لنفسها مكاناً لتسرح وتمرح.. عربات أطفال.. عربات أيدي.. ودراجات بأنواعها. وبما أن السيارات الكبيرة لا تستطيع الدخول من الباب الصغير. كانت تقف خارج الحديقة.

الخطاط ما زال يعمل دون توقف. ولم يستطع إنهاء مهمته. لأن المدير كان يصدر كل يوم ممنوعات جديدة حتى أن النوافذ لم تسلم من أوامره، فقد وضع فوق كل نافذة لوحة «ممنوع فتح النوافذ».

بدأ مديرنا بكتابة اللوحات بالجملة.. ومن بعض العناوين التي كتبت «الدخول ممنوع من هنا» «ممنوع الخروج من هنا». «لا تبصقوا على الأرض» «ممنوع رمي السجائر والأعقاب على الأرض». «ممنوع الدخول لمن ليس له عمل» «انتباه ممنوع التدخين في هذا المكان». «لا تتحدثوا بصوت عال». «لا تلمسوا هذه العلبة خطر» «ممنوع كتابة أو رسم أي شيء على الجدران» «الخروج من هذا الباب ممنوع منعاً باتاً».

ومع ازدياد عدد اللوحات المانعة.. وصلنا إلى وضع لم نستطع معه أن نستعمل ربع مساحة الدائرة.

كتبت لوحات أخرى مشابهة كثيرة. وأشرف المدير نفسه على وضع اللوحات في المكان الذي يراه مناسباً. إلا أن مواقف مدهشة ومحيرة حدثت عندنا. كانت هنالك لوحات معلقة على أبواب المراحيض.. كتب عليها: «ممنوع الدخول لمن ليس عمل» ولهذا السبب.. كان الموظفون يتجمهرون أمام المراحيض.. من الذي ارتكب هذه الأخطاء يا ترى.. المدير نفسه أم الزملاء؟ كانوا يبدلون أماكن اللوحات.. لم نفهم كيف حدث ذلك.. خاصة وأن إحدى اللوحات الخمس المعلقة على باب المدير قد كتب عليها «لا تبصقوا هنا».

كان داخل الدائرة مضاءً.. واللوحة المعلقة فوق الأزرار الكهربائية كتب عليها: «لا تشعلوا المصابيح في النهار». ولكن بعد وضع هذه اللوحة المانعة.. صارت المصابيح تبقى مضاءة على الدوام. ولا تنطفئ إلا في الأوقات التي يكون فيها ماس كهربائي. وهناك لافتة وضعت قريباً من علب توزيع الكهرباء. كتب عليها «خطر ممنوع لمس هذه العلب» بعدها

صار الجميع يلمسون ويلعبون بالعلب.. والمماشي أصبحت ملأى بأعقاب السجائر.

وعندما دخل الدائرة رجل «خوش بوش» وبصق على أرض الممشى غضبت منه كثيراً وقلت له وأنا أشير إلى اللوحة المانعة التي تقول: «ممنوع البصاق على الأرض».

- يا أفندي.. ألا تحسن القراءة.. لماذا بصقتم على الأرض.

خجل الرجل كثيراً وقال:

- عفواً.. لكن فضولي جعلني أتساءل ماذا سيحدث إذا بصقت؟

اختفى المدير فجأة في الشهر الثالث لمجيئه إلى الدائرة، وهو الذي لم يخرق ممنوعاً واحداً طوال حياته. والذي ملأ عرض الدائرة وطولها باللوحات المانعة. اختفى حقيقة ودون سابق إنذار. وبما أنه لم يذهب إلى بيته.. كانت زوجته وأولاده.. أكثر خوفاً عليه. لقد اختفى المدير فعلاً. دام الاختفاء يومين كاملين، وفي نهاية اليوم الثاني وجده أمين المستودع صدفة.. عندما دخل المستودع في الطابق الثاني.. والذي لا يستعمل إلا قليلاً.. عندما سمع صوت المدير من الممشى المجاور، عاد بسرعة وأخبر الزملاء. تركنا كلنا أعمالنا.. وأسرعنا لمساعدة المدير.. أقول أسرعنا لمساعدة المدير، لأن المدير بقي محشوراً في الممشى وكأنه محاصر في مكان ضيق جداً. الممشى ليس ضيقاً.. ومع هذا بقي المدير محصوراً فيه.. إليكم كيف حصل ذلك.

دخل المدير بإحدى الطرق من باب الممشى الذي لم يعلق فوق بابه لوحة مانعة. وأراد الخرج من الباب الثاني.. وإذ به يفاجأ بلوحة معلقة فوق هذا الباب كتب عليها «ممنوع الخروج من هذا الباب منعاً باتاً». والمدير الذي لم يخرق ممنوعاً واحداً طوال حياته. طبعاً لن يخرق المنع الذي أمر به شخصياً.. أراد الخروج من الباب الذي دخل منه، وإذ به يرى لوحة

معلقة على الباب كتب عليها «خطر.. ممنوع لمس هذا الباب».

وظل مديرنا المسكين يدور من هنا إلى هناك.. لا يدري ماذا يفعل.. وهكذا ظل محاصراً في الممشى.. ولم يستطع التدخين نظراً لوجود لوحات على الجدران كتب عليها «ممنوع التدخين هنا». و«ممنوع رمي أعقاب السجائر وأعقاب الكبريت على الأرض».

كنا نتحدث معه من خلف الباب.

قلنا له: ارم بنفسك من النافذة يا سيادة المدير.. ونحن نمسك بقطعة قماش نتلقاك عليها. فأجابنا:

ـ لا أستطيع فتح النافذة.. لوجود لوحة فوقها كتب عليها «ممنوع فتح النافذة».

قال أشياء أخرى كثيرة. ولكننا لم نفهم منها شيئاً.. وضع أحد الزملاء أذنه على الباب واستمع:

سألناه: لماذا يتحدث بصوت غير مسموع؟

قال: هنالك لوحات كتب عليها «لا تتحدثوا بصوت عال».

لم نستطع إخراج مديرنا المسجون من سجنه.. قال معارفه المقربون.

ـ يموت هناك ولا يخرق قانون الممنوعات.

مرة أخرى.. هو الذي وجد طريقة خروجه بنفسه.

ـ أسرعوا وأتوني بالخطاط.. وليكتب لوحة تتضمن «الخروج من هذا الباب غير ممنوع».

كتب الخطاط اللوحة بسرعة.. وأدخلناها من تحت الباب.. أخذها ووضعها محل سابقتها على الباب.. ثم خرج منه.

قال لنا جميعاً:

ـ انظروا كم من الصعوبات تسببها إطاعة القوانين. لو وضعنا لوحة

على هذا الباب كتب عليها «ممنوع الدخول» لما تعرضنا لمثل هذه المشكلة. ولما بقيت يومين كاملين مسجوناً. فلو أنني رأيت اللوحة المانعة ما كنت دخلت.. هل رأيتم فائدة إطاعة القوانين المانعة.

الأحسن.. هو عدم وجود لوحة «ممنوع الخروج من هنا» على باب مكتبه من الداخل.

أمر المدير بتعليق لوحة على الباب الذي خرج منه «ممنوع الدخول عبر هذا الباب».

لم يبق مكان فارغ في دائرتنا لم تعلق عليه لوحات مانعة. فإن بقينا ذات يوم محبوسين في الدائرة. لا تفكروا بنا أبداً. لقد بقينا في الداخل محبوسين لأننا لا نريد خرق القوانين المانعة.

٩

طلع الرجل يعرفني

ترجلنا من السيارة. مشيت مستنداً على رفيقي متين. كان الجو حاراً جداً. والميناء مزدحماً. حشرنا أنفسنا في إحدى الزوايا، وكنا جنباً إلى جنب خلف القضبان الحديدية لتي تشبه أقفاص الوحوش المفترسة. على أمل أن نركب الباخرة.. عندما تفتح أبواب الأسلاك الشائكة.

دفعني أحدهم من الخلف. ووقف بيني وبين رفيقي متين، ثم جاء آخر ودفع الرجل. ودخل بيننا.. وصار الإثنان بيني وبين زميلي. وكلما ازداد عدد الداخلين بيننا.. كنا نبتعد عن بعضنا.. وتزداد المسافة بيننا.

قلت لرفيقي:

ـ سنلتقي داخل السفينة.

صرخ رفيقي من مكان بعيد..

ـ أنت مريض.. لا تظل واقفاً.. ابحث عن مكان واجلس.

كانوا يدفعونني على الدوام.. إلى أن غاب رفيقي متين عن ناظري.

صرخت: متين رفيقي.

رأيت يداً مرفوعة وسط الزحام وسمعت صوته:

ـ نلتقي في السفينة.

فُتح باب الميناء. وإذا بموجة تعادل قوة ألف حصان ودفعتني من الخلف نحو السفينة. واستقرت بي في صالون كبير من الدرجة الأولى. جلست

على الفور في مقعد فارغ، وما هي إلا لحظات حتى امتلأ المكان بأكثر من ألف شخص.

لم أر رفيقي متين في الجوار.. كنت مرهقاً جداً.. أصبتُ بدوار في رأسي وغشاوة على عيني.. وشعرت بغثيان شديد.

كان هناك رجلان يجلسان قبالتي. أحدهما أصلع الرأس.. يضع نظارة على عينيه.. يقاربني في العمر.. أما الآخر فبدا في الثلاثين تقريباً.. صوته أجش، يتحدث فتخرج الكلمات من فيه مثل بو بو بو.. بدين إلى حد ما يمسك الأصلع بين يديه إحدى جرائدنا. أي الجريدة التي أعمل فيها.. وفتحها على الزاوية التي أكتب فيها تماماً. قال للشخص الآخر ذي الصوت الخشن:

ـ العمى.. ماذا كتب هذا الرجل.

سررت بعض الشيء.. وخجلت بعض الشيء أيضاً.. أدرتُ برأسي نحو البحر.. كي لا يتعرفا علي.. وربما كانا يعرفانني..

قال البدين:

ـ إنه.. كاتب.. كاتب سافل.

لو كنتم مكاني وفي مثل هذا الموقف.. ماذا تفعلون؟ تقبلت الإهانة وكأنني لم أسمعها.. وبدا واضحاً أنهما لا يعرفانني. ليتحدثوا من خلفي ويعاتباني.. على هواهما وطول فترة جهلهما لي.. قال الرجل الضخم ذو الصوت «المبؤبأ» بعد أن سكت بعض الوقت.

ـ نعم إنه كاتب.. وله كتابات جميلة.. ولكن ما الفائدة إنه شخص مصروع.. لا يساوي قرشين.

كان علي إما أن آخذه من عنقه وأخنقه.. أو أن أبتعد عنهما. غير أنني كنت تعباً جداً عاجزاً عن التحرك من مكاني.. حتى لو تحركت يستحيل

علي الانتقال قيد أنملة لشدة الازدحام. قلت في نفسي:

«بما أنهما لا يعرفاني.. ليتحدثا عني بقدر ما يستطيعان». على الإنسان أن ينظر إلى نوايا المتكلم.. وحدث ولمرات كثيرة.. أن قلت مثل هذا الكلام للآخرين.. وتظاهرت وكأنني لا أسمع شيئاً مما يقولون.

قال الأصلع:

ـ هل تعرفه؟ قال ذو الصوت المبْوبأ.. البدين:

ـ وكيف لا أعرفه.. طبعاً أعرفه.

تمعنت وجهه بدقة.. هل هو معرفة قديمة يا ترى؟ لكنه صغير السن.. أكثر شباباً مني.. لا أذكر أنني أعرف شخصاً يشبهه.

ـ أعرفه.. والله أعرفه..

قال الأصلع لابس النظارات:

ـ نعم.. نعم.. كنت أظنه رجلاً عندما أقرأ كتاباته.. الله الله

ربما يعرفاني حقيقة.. ويقومان بهذه التمثيلية أمامي ويتحدثان هكذا.. معنى ذلك أن نهايتي ستكون في المخفر.

قال الضخم:

ـ من حيث الكتابة يكتب.. لا أحد ينكر ذلك.. ولكن.. أنا من جعل منه رجلاً.

ـ لا ولك روحي..

ـ وهذا أسوأ ما فعلته في حياتي.. كان والده سماكاً.. وكانوا يسكنون في حينا عندما كنت طفلاً.

قال الأصلع:

ـ أليس من مدينة «قونيا»؟

ـ نعم.. كان والده سماكاً.. ونظراً لعدم وجود بحر في قونيا.. لذلك عمل في بيع السمك المجفف «اسكنبري».

كل من كان حولهما كانوا يستمعون إليهما بانتباه.. أما أنا فكان العرق يتصبب من جسدي.. لو جاء رفيقي متين.. لذهبت معه إلى مكان آخر.

ـ درسنا في صف واحد.. كنا نسميه «باي بريك».

كان الرجل.. يتحدث ويضع النقاط على الحروف.. أما أنا فلم أذهب إلى قونيا ولو مرة في حياتي. قال الأصلع:

ـ هذا ليس اسمه الحقيقي.

قال الآخر دون خجل:

ـ نعم اسمه الأصلي «دورمش» وكانوا أربعة عشر أخاً.

كان الرجل ينسج الحكاية من خياله.

ـ عندما مات الجميع.. سموه «دورمش» ليبقى حياً ولا يموت (دورمش: الواقف في مكانه) عندما كان في المدرسة.. كان الجميع يضربونه. ويعتدون عليه.. وأنا أدافع عنه..

ذات مرة.. ولن أنسى ذلك أبداً.. أعطاني «راشيته» في الامتحان.. وإليه يعود نجاحي في أحد الأيام.

ـ طردوه من المدرسة لمخالفة ارتكبها.. ومرَّ زمن طويل حتى التقيته في استنبول «باي اوغلو» وهو ينادي: حوت.. حوت.. كان يبيع لحم الحوت. سألته: ما هذه الحالة التي أنت فيها ولك؟ قال: أمان بالله عليك يا أخي.. لا تسلني.. أخذته إلى الحمام وأعطيته بعضاً من ألبستي القديمة.. ووضعت في جيبه مائة ليرة «خرجية».. وقلت له:

«عد إلي عندما تشعر أنك بحاجة.. او في أزمة». ولم يكد يسمع

كلامي حتى صار بلاءً على رأسي.. يأتيني كل صباح ومساء.. يطلب مني النقود.

كان المستمعون.. يزدادون باضطراد.. وكلما ازداد اهتمام الآخرين بحديثه ازداد صوته قوة وارتفاعاً.. سأله الأصلع:

ـ ولماذا يطلب النقود منك؟

ـ إنه مقامر يا أخي.. هل يشبع المقامر من المال؟

ـ أ أ أ إذن يلعب القمار أيضاً؟

ـ أوووو.. ذات مرة بقي ثلاثة أيام ولياليها لم يتحرك عن طاولة القمار.. ومرة باع ألبسة والده وقامر بها.. فطرده والده من المنزل.. جاء إليَّ وقال «آمان يا آبيه» صفعته صفعتين قويتين على خده.. وطردته من منزلي.

ـ خيراً فعلت.

كان عدد المستمعين يزداد باضطراد.. ولكي يسمعوا الحديث جيداً، مدّوا برؤوسهم وأداروا آذانهم صوب الرجل. وجعلوا من أيديهم أجهزة تنصت.. وكأنهم يريدون دخول فم الرجل.

ـ إي إي إي وبعدين.

ـ وبعد ذلك.. يا سيدي.. لم أدخله بيتي ثانية.

قال رجل بدين بين المستمعين:

ـ كلامه صحيح.. أعرفه.. لقد باع بنطاله. من أجل القمار. حتى أنه نال نصيبه عندنا في النادي (أكل قتلة).

ـ الله.. الله.. ولماذا أكل القتلة؟

ـ والله.. يقال بأنه تحرش بإحدى النساء.. شيء من هذا القبيل.

قال واحد من الحضور.. وهو أسمر متجهم الوجه.. وبدا جاداً في موقفه:

ـ لا يستطيع النوم دون أن يحكّوا له جلده.. أنا شخصياً.. لا أؤذي نملة. ضربت هذا الرجل ثلاث مرات.. رغماً عني. يا سيدي.. لقد ابتلى بمرض التلصلص.. في الليالي يصعد الأشجار وأعمدة الهاتف والكهرباء والجدران ويراقب البيوت وقانا الله.. إنه مرض خطير.

كانت ليلة مقمرة.. وكنت أخلع ثيابي في غرفة النوم.. ولسبب ما.. نظرت إلى النافذة.. ماذا أرى؟ رأيت الرجل على شجرة التين.. أسرعت إلى النافذة أمسكت به وبدأت بضربه.. ونال جزاءه على أكمل وجه.. ركع عند قدمي «التوبة يا أخي».. تركته لكنه في الليلة التالية كرر فعلته..

سأله أحد الحضور:

ـ هل كنت وحيداً في غرفة النوم؟

قال الرجل بعد تفكير:

ـ نعم كنت وحيداً.. دار الحيَّ كله ليراقب امرأة.. ولما لم يجد إحداهن.. قرر مراقبتي.. كانت ابنتي وزوجها في زيارة أحد الأقرباء في «قالنجيا».

شيء في أعماقي كان يشدني كي أبصق في وجوههم «توه.. جزاكم الله».

ولكن الأمر لن ينتهي هكذا يجب أن أتشاجر معهم فإما أن أموت أو أقضي عليهم. لو أنني رأيت أحداً منهم ولو مرة في حياتي.. لسكتُّ ولن أتفوه بكلمة.. أما هذا الكذب والافتراء فلا يمكن السكوت عنهما.

قال الشاب:

ـ ولكنه يكتب جيداً.

قال جاره:

ـ ولكن كم قرشاً يساوي يا بني.. إن لم يكن الكاتب خلوقاً.. يجب أن يكون الكاتب خلوقاً مثل كل شيئ حتى يكون إنساناً.

قال رجل عجوز.. ضعيف البنية كالعصا:

ـ مع الأسف الشديد.. أنا الذي جعلت منه صحفياً.. ورفعته فوق الجميع. أنا أول إنسان علمته كيف يمسك القلم.

ـ إذن انت تعرفه؟

ـ طبعاً أعرفه.. أقول لكم أنا الذي جعلت منه محرراً.. يومها كنت أصدر جريدة في مدينة «بلاجيك» ذات يوم.. جاءني شاب يطلب عملاً.. وأصغيت لذلك الشيطان وقلت له: تعال سأجعل منك محرراً وبذلك تكسب قوتك.. ويا ليتني لم أفعل ذلك.

ـ نعم.. الآن فقط فهمت.. إذن عمل عندك في «بلاجيك» ثم جاءني بعد ذلك.

لم أعد أقوى على سماع المزيد.. وكان الحل الوحيد الهروب من هناك. فإما أن أبصق في وجوههم أو أهرب. فضلت الابتعاد عنهم ليتحدثوا كما يشاؤون.. أذكر أنني مررت بالقطار عدة مرات من «بلاجيك» أية بلاجيك؟ وأية صحيفة؟ وقفت على رجلي.. فأخذ أحدهم مكاني مباشرة. أردت التقدم فلم أستطع أن أخطو خطوة واحدة إلى الأمام.. أنا مريض.. لقد خارت قواي.. وفضلت البقاء فالازدحام الشديد أعاق انتقالي وأبقاني في مكاني.

ظلَّ الرجل ذو الصوت «المبوْبأ» يشرح للآخرين.. كيف قبضوا علي مرة في إحدى بيوتات الدعارة. وكيف خرجت من هناك عارياً.. وآخر يقول كيف أكتب كتابات غير أخلاقية.. وأطبعها سراً.

وبهذا أفسدت أخلاق الشباب في كل مكان. وكم مرة قال لي شخصياً «لا تفعل ذلك.. لا تنشر هذه الكلمات» فلم أسمع. ولهذا

طردني.. ولم يكلمني بعدها. وقال أنني في إحدى المرات أخذت أموالاً من الحكومة.. وحاربت المعارضة.

ـ هل ما قلته صحيح؟

ـ أوو مرات عديدة.

ربما أنا شخص لي روحان.. وكنت أجهل نفسي. فأستمع إلى مغامراتي بحيرة ودهشة. جمعوا السيئات الموجودة في العالم كلها في شخصي.. كل هؤلاء الأشخاص الذين لم أرهم في حياتي يعرفونني عن كثب.. كلهم قدموا لي المساعدة.. أرشدوني إلى الطريق القويم.. ولم أعمل بنصائهم فصفعوني على وجهي وقالوا «انقلع من هنا ولك.. لا نريد رؤية وجهك ثانية».. وربما كانوا يتحدثون عن شخص آخر.

سألت من كان يتحدث عن التهديدات التي كنت أقوم بها

ـ عفواً.. عمن تتحدثون؟

أشار إلى الزاوية الموجودة في الجريدة.. وذكر اسمي تماماً.

ـ هذا هو.. هل تعرفه أنت أيضاً؟

ـ أعرفه.

ـ انظروا.. انظروا.. هذا السيد أيضاً يعرفه.

التفتوا جميعاً صوبي وقالوا

ـ وكيف هو؟

ـ ليس برجل مقبول

أردت أن أبتعد من هناك.. فرآني رفيقي متين.. وصار ينادي من مكانه.

ـ أيها السيد.. أيها السيد.. طبعاً ذكر اسمي.

لو قلت: أفندم.. أو نعم لعرفوني.. وسيخجل كل الذين تكلموا عني بالسوء وادعوا أنهم يعرفونني منذ زمن طويل.. فقررت الصمت.. وسأبقى موافقاً على كل الحقارات التي أمطروني بها، ولذلك لم أخرج صوتي أبداً.

ظل رفيقي متين ينادي:

ـ يا سيد.. يا سيد..

لم ألتفت إليه مطلقاً، وتمنيت لو أن السفينة تقترب من ميناء «قاضي كوي» وأتخلص من هذا الجو كلياً. وأشرح الموقف لرفيقي لمتين. غير أن الآخر غضب مني كثيراً لأنني لم ألتفت إليه.. واقترب مني وهو يدفع الواقفين وقال:

ـ ولك أخي ألا تسمعني.. منذ وقت طويل وأنا أناديك.

نظرت إلى وجهه.. متجاهلاً إياه.. وقلت.

ـ ماذا تريد يا سيد؟

ـ ولك أخي..

ـ أي سيد.. تعني.. أنت تشبهني لشخص تعرفه.

ـ ولك أخي.. ألم نركب السفينة معاً قبل قليل؟

التفت الذين تناولوني بالسوء نحوي وصاروا ينظرون إلينا

ـ ولك..

ـ أي سيد؟

ـ ولك أخي.. ألم نخرج من السينما سوية.. وساعدتك حين مرضت وأركبتك السيارة.

ـ أنت مخطئ أيها السيد.

ـ والله سأجن.. ألست أنت الصحفي الذي تكتب لطائفاً في الجريدة الفلانية... واسمك....؟

ـ لا..

ـ ولك..

ـ أرجوك.. يا سيد..

التفتُّ صوب المحتشدين وقلت لهم:

ـ رجاءً أيها السادة.. هل يعرفني أحداً منكم. وهل أنا من كنتم تحكون عنه؟

قال الرجل العابس:

ـ استغفر الله.. لست أنت.

وقال أبو الصوت المبوْبأ:

ـ وما المناسبة.. ذاك رجل أشقر وطويل القامة.

ـ لا يا روحي.. لا علاقة له به أبداً ولا يشبهه مطلقاً.

التفت نحو رفيقي متين:

ـ أرأيت؟ كنت مخطئاً

احمر وجه رفيقي متين غضباً فبصق

ـ توه.. وغادر المكان

كانت السفينة قد اقتربت من الميناء.. وما زال الرجل ذو الصوت المبوْبأ يتحدث عني لموظف السفينة.

بعد ذلك اليوم.. قاطعني رفيقي متين، ولم أتمكن من إطلاعه على الحقيقة بأي شكل من الأشكال.

١٠

حضرة السلطان

فرحت كثيراً لوجود صالتي عرض سينمائيتين في مدينتنا.. رغم أن هناك مدن أكبر منها، لا يوجد فيها صالة عرض سينمائية واحدة.

وما يُفرح الإنسان أكثر.. هو عدم وجود منافسة أو رقابة بين الصالتين. كما هي العادة في المدن النائية الأخرى. هاتان الصالتان تملكهما شركة «دبميك المساهمة السينمائية».. بعد مجيئي بأسبوع واحد تعرفت على أحد أصحاب الشركة وهو السيد محمد.. وأبديت له ارتياحي وسروري لعدم وجود منافسة بين الصالتين.

والسيد محمد هذا بهلواني الجسم، ناهز السبعين من عمره ولكنه يبدو مثل شاب، قوي البنية، مسح شاربه العريض بيده

ـ هيي.. وضحك.

جميع أسنانه الظاهرة من ذهب. قال:

ـ لا تغرُّك هذه الشراكة أيها السيد.. شراكتنا فرضت علينا وليس بمحض إرادتنا. فالشراكة هنا لا تجدي.. ولكن ماذا نفعل؟

كان ينتظر أسئلتي ليسترسل في حديثه أكثر

ـ نعم.. إذن لستَ مسروراً بهذه الشراكة؟

ـ وهل هنالك ما يدعو للسرور؟ لقد أحضرت كل جديد إلى هذه المدينة.. لا أمدح نفسي عندما أقول. أنا من أحضر آلة التصوير أول مرة

إلى هنا.. وكذلك السيارة. والبراد. الناس وذُهش خاصة عندما أحضرت الغسالة.. لم يصدقوا عيونهم.. جاءوا إلى البيت أفواجاً أفواجاً، ليلقوا نظرة عليها وتملكتهم الدهشة، ولولا مجيئي إلى هنا لما عرفت هذه المنطقة المدنية إطلاقاً.. ذلك «القواد» المدعو «يحيى» يعني هل شاهد السينما في بيت أبيه.. أنا من أوجد أول صالة عرض سينمائية هنا.. الذنب.. ليس ذنب ذلك القواد يحيى. بل الذنب على من أوجد السينما هنا.

ـ ومن هو يحيى الذي تتحدث عنه؟

ـ إنه شريكي.. ليته لم يولد.. مضى أكثر من عشرين عاماً على إحضاري السينما إلى هنا، ولكن الحسد أعمى قلوب سكانها. فإن أقام أحدهم مشروعاً ما.. وربح بضعة قروش.. ترى الجميع يعملون على إقامة مشروع مماثل، لو قلت: أنني ألقيت بنفسي من فوق «الصخرة العشبية» إلى النهر ووجدت أربعين ليرة.. لألقى الجميع أنفسهم عن تلك الصخرة. لماذا لم يتعاط هذا السافل عملاً آخر.. ويربح..

ـ يبدو أن ربحك لم يرق له.

ـ منذ أربع سنوات فرَّغ يحيى بناء تحت فندقه.. وحوَّله صالة سينما. وسماها «السينما الجديدة» أي جديد هذا.. سينما في مكان يشبه الخان.. تسمَّى صالة جديدة. يقصد بذلك التحقير من قيمة صالتي أمام الناس. يبدو أن هؤلاء الناس فقدوا عقولهم.

عندما فتحت السينما الجديدة.. بقيت صالتي فارغة لا يدخلها أحد. أنفقت أموالاً كثيرة.. جلبت من استنبول أحدث الأفلام، وأجملها، وأغلاها، ومع ذلك ظلت صالتي فارغة أيضاً. صالتي اسمها سينما الشرق.. كل الناس كانوا يدخلونها.. موظفوا البلدية.. كانوا يرتادونها مجاناً.. عزفوا اليوم عنها.. كنت سأعلن إفلاسي..

ماذا أفعل؟ قلت في نفسي «سأقتل هذا الرجل وأُنقذ البلد من إنسان عديم الشرف» بلغ كلامي هذا مسمع السيد شريف.. فأسرع إليَّ وقال:

ـ يا سيد محمد.. أنت لست ولداً؟ ماذا ستجني من قتله؟

لنعمل به مقلباً.. يكون أصعب عليه من القتل.. ونضطره إلى إعلان إفلاسه.

ـ آمان... كيف؟

ـ نقوم بترميم صالتك.. ندهن الأبواب والجدران فتصبح صالتك أحدث من صالته.

ـ حتى لو أصبحت جديدة.. ماذا يختلف إذا بقي اسمها على ما هو عليه.

ـ نغير اسمها أيضاً نسميها «سينما الشرق الجديدة».

دهنا باب الصالة باللون الرمادي.. والأبواب الأخرى باللون الأخضر.. وغيرنا اسمها إلى «صالة الشرق الجديدة».. الله..والله.. لقد تبدل كل شيء دون أن نعرض أي فيلم.. لقد امتلأت الصالة بالمشاهدين.. وأصبحت صالته قديمة.. وصار يحيى يكش الذباب. طبعاً لن يستطيع تبديل اسم صالته.

ولم تمض فترة وجيزة إذا بيحيى هذا.. يحضر راقصة من استنبول.

تبدأ الفتاة بالرقص أولاً.. وبعد ذلك يبدأ عرض الفيلم.. فرغت صالتي مرة أخرى.. قلت إذا لم أقتل يحيى هذا .. لن يرتاح العالم من حولي. سمع شريف أفندي مرة ثانية بما نويت عليه.

ـ آمان يا سيد محمد نحن نعيش في عالم متمدن.. وقتل الرجال لا يليق بنا أبداً.

ـ إذا كنا نعيش كما قلت في مجتمع عصري متمدن لنسلخ جلده عن عظمه ونملأه تبناً.. لربما يعود إلى رشده.

ـ آمان... هذا الأمر أيضاً غير وارد.. لنعمل معه مقلباً.. يكون أصعب من الموت.

ـ كيف؟

أخذ مني شريف أفندي ألف ليرة. وأعطاها للفتاة التي كانت ترقص في صالة يحيى.. وطلب منها القيام بعمل مشين.. وإذا بالفتاة تنزل سروالها وهي ترقص.. اقتادوها إلى المخفر فقالت: «ماذا أفعل؟ بضائع هذه الأيام كلها سيئة، نزل سروالي من غير قصد بسبب اهتراء رباطه وتقطعه».

جاء شريف أفندي وقال:

ـ آمان بالله عليك.. ألف ليرة أخرى.

أعطيته ألف ليرة أخرى.. وإذا بالفتاة تنزل سروالها الداخلي مرة أخرى وهي ترقص.. أخذوها إلى المخفر وقالوا لها: «لا تهزي بطنك بقوة كي لا تقطعي رباط السروال، وإلا سنطردك من هنا. لقد أفسدت أخلاق الناس».

جاءني شريف أفندي ثانية وقال:

ـ آمان أعطني ألف ليرة.

أعطيته.

هذه الراقصة ما شاء الله.. ذات بطن.. لو ربطته بحبل لقطعته.. في بلدنا جريدة اسمها «أصل الحقيقة».. أخذ مني شريف أفندي مئتي ليرة مقابل عنوان كتبته هذه الجريدة التي صدرت. في صباح اليوم التالي بعنوان: «الراقصة مضار التي تقطع أربطة سراويلها كل يوم ستفسد أخلاق

البلد».. في الليلة التالية.. ربطت الراقصة حبلاً على بطنها وقطعته.. فكانت بداية النهاية.. حيث أبعدوها عن البلد.

شريف أفندي هذا يمتلك عقلاً لا يملك مثله حتى الشيطان نفسه.. عادت صالتي تعمل دون توقف. وقاطع جميع أهل المدينة السينما الجديدة.

في تلك الأيام.. جاء مسؤول كبير من الحزب المعارض وقال:

ـ سنعقد مؤتمر الحزب هنا.. هل تؤجرنا صالتك لمدة ساعتين فقط؟

ـ عد إلى عملك فأنا لا أُأجر فردة حذائي للحزب المعارض.

ـ نعطيك خمسمائة ليرة.

لم يكن دخل السينما يدرُّ عليَّ خمسمائة ليرة في اليوم.. خمسمائة ليرة في ساعتين ممتاز.. ومع هذا قلت له:

ـ لا أقبل.

عادوا في اليوم التالي.

ـ نعطيك ألف ليرة عن كل ساعة.. فرفضت.

في اليوم الثالث قالوا:

ـ نعطيك ألفي ليرة عن كل نصف ساعة.

ـ لا أقبل..

ـ ثلاثة آلاف ليرة لكل نصف ساعة.

لم أعد أحتمل.. ثمن السينما.. سيضيع قلت:

ـ أقل من أربعة آلاف لا أقبل.

أعطوني المبلغ.. لأنهم مضطرون.. فلم لا يعطوني؟ لأنهم وجدوا أن لا أحد قدِّم لهم صالته.. لأنهم معارضون.

انتهى المؤتمر.. جاء موظف البلدية قبل خروج المستأجرين من السينما وقالوا:

ـ صالتك.. تعمل ضد نظام البلدية.. سنغلقها.

ـ آمان.. وأين المخالفة؟

ـ يجب أن يكون لها بابان.

ـ «ولك عمي» صالتي لها خمسة أبواب.

ـ أين مرحاضها.

ـ هل تجهلون مكان مرحاض هذه الصالة.. ها هو.

عرفت أنه لا مفر وأنهم يبحثون عن سبب قالوا:

ـ سنغلق الصالة.. لأنها تكون مظلمة عند عرض الأفلام.

لقد أغلقوا الصالة مدة شهرين.. عرفت بعدها أن يحيى كان وراء تأجير صالتي لحزب المعارضة.. قال لهم «ذاك الرجل مادي جداً.. ادفعوا له مبلغاً كبيراً وأنا أعطيكم مقابله. وعندها لا يستطيع المقاومة.. يعطيكم الصالة حتى ولو كان الموت من بعدها».

لا فائدة إذا لم أقتل يحيى هذا السافل وأخلص البلد منه لن أرتاح..

جاء شريف أفندي.. قلت له:

ـ لا تتفوه بكلمة واحدة.. هذا العمل لا يغسله إلا الموت.

ـ رويدك قليلاً.. إفلاسه أصعب من الموت.

ـ حسن.. وماذا سنفعل؟

ـ هذا الرجل متهرب من الجندية لنخبر عنه.

أخبرنا عنه.. وإذا به يعلق صورة كبيرة بطوله على باب صالته. عندما رأيت الصورة عرفتها إنها صورة يحيى عندما كان شقياً. أي قاطع طريق.

وقد لبس جزمة طويلة أنزل بنطاله عليها ووضع الذخيرة على الجانبين وعلى نطاقه.. فبينما كان الناس يحاربون في حرب الاستقلال كان هذا السافل قاطع طريق. من دون أن يخجل من نفسه.. كبَّر صورته وعلقها على باب السينما، متباهياً ومدَّعياً أنها صورته عندما تطوع أيام الحرب. وقدم خدمات للوطن.. قاطع الطريق صار بطلاً.

أنا الآخر كنت شقياً لفترة من الزمن لا تقل عن يحيى.. ولي صورة كبرتها وعلقتها ليس على باب الصالة وإنما على جدار مكتبي من الداخل وإذا ما سألني أحد أقول:

- هذه الصورة ذكرى من أيام حرب الاستقلال.

كيف يعلق إنسان مثل هذه الصورة على الباب ولك يا.. على الإنسان أن يخجل من نفسه.. لكن لم يبق عند هذا الرجل ذرة من الضمير.

مرَّ شهران ففتحت الصالة أبوابها.. ولكن لم يدخلها أي إنسان.. قال شريف:

- أعطني خمسمائة ليرة

ماذا ستفعل؟

- سأعطيها للشيخ نوري.

عندنا شخص اسمه شيخ نوري.. وصفة الطبيب لا تساوي قرشاً واحداً عند حجابه.. بصاقه دواء «للتراخوما» ونَفَسه علاج للروماتيزم والمغص.. شيخٌ نَفَسَهُ حاد جداً.

أعطيناه المال.. وبدأ الشيخ نوري يتوسَّل ويتوعَّد كل من يدخل السينما رجلاً كان أم امرأة نعوذ بالله منه ويكون كافراً. أما أنا فقد قسمت الصالة بستارة إلى قسمين.. طبعاً هذا من تدبير شريف أفندي.. القسم

اليمين للسيدات.. واليسلري للرجال.. وجعلنا مراحيض خاصة للنساء وأخرى للرجال.

وبسبب أدعية الشيخ نوري وتوسلاته ابتعد الناس عن صالة يحيى.. أما صالتي فعادت تمتلئ بجموع المشاهدين والمشاهدات.. هذا العقل الذي عند شريف أفندي لا مثيل له أبداً.. وقلت أنه ما دام شريف أفندي معي حتى لو هاجمتني سبع دول لا يهمني أبداً.

بعد عدة أيام سمعنا أن يحيى بدأ بعرض حفلات خاصة بالنساء وأخرى خاصة بالرجال.وأن الشيخ سعيد أصبح معه. كان هذا الشيخ يعظ الناس باستمرار قائلاً:

مهما رفعت الستائر بين الرجال والنساء وفرقتهم عن بعضهم، فإن قوة الرجولة تنفذ حتى من الجدار وليس من الستارة فقط.. وتثير النساء. كما وأن تنفس الرجال والنساء تحت سقف واحد يدخلهم النار جميعاً، وتكون المرأة طالقاً من زوجها آلياً. أما الرجال فمصيرهم النار فيها يكتوون. إلا في حالة واحدة وهي عندما تخصص للنساء فقط حفلة صباحية وحفلة خاصة للرجال.

يبدو أننا بلعنا الحبة.. فالشيخ سعيد ليس من المشايخ العاديين. إنه يقرأ لسان الحمير.. ويفرِّق ليلى عن مجنونها.. ويجعل من لحم الخلد أنفاساً.. يشفي المسلول من الدرجة الثالثة.. ويعافيه من الدرجة الأولى. والحجاب الذي يعطيه لك لا ينفذ منه الرصاص إليك.

ما أعرفه أن يحيى هذا أحمق من الدرجة الأولى، فمن أين له هذه الأفكار وهذه الطرائق؟ من الذي يعلمه كل ذلك؟

نحن أيضاً أقمنا حفلات خاصة بالنساء وبالرجال. ولكن بعد فوات الأوان. صالته مليئة.. وصالتي ليس فيها أحد. قلت لشريف أفندي:

ـ عن إذنك يا شريف أفندي لقد طفح الكيل، سآمر بقتل هذا الرجل. ولقد خصصت أموالاً كثيرة لذلك.. ولن يضيرني إن أنفقت خمسة وعشرين قرشاً ثمناً لرصاصتين.

ـ انتظر بعض الوقت.. لقد أفتى الشيخ نوري فتوى جديدة ويطلب منا أن نقوم بالتالي:

أحضرنا فيلماً من استنبول فيه الرقص والمولد.. والآذان.. والقبر والإمام.. والشيخ.. فيه كل هذه الأشياء.. واشترينا مجموعة من الأفلام العربية.. وألصقنا بعض الصور والكتابات العربية على واجهة الصالة.. وكان الشيخ نوري يردد في كل مكان.

ـ هكذا تكون السينما المسلمة.

فعندما يبدأ الفيلم كانت الأبخرة تحرق في الصالة.. وعند المولد، كان رجالي يرشون ماء الزهر على المشاهدين.

مضى عليَّ وأنا أعمل بهذه المهنة عشرات السنين ولما فكرت بمثل هذه الأشياء يا أخي. صار الناس يفدون من اثنين وسبعين ولاية لمشاهدة الفيلم. وأصبح عدد سكان ولايتنا أكثر من عدد سكان باريس.. ولا يلتفت واحد منهم إلى باب سينما يحيى.

بعدها قالوا أن هناك مقاماً لقديس موجود في حديقة سينما يحيى.

«يحيى أبو رأس البطة» من أين له هذه الأفكار.. طبعاً هذه فكرة الشيخ سعيد.. أحضروا فخذاً مبتورة من المشفى. بترها صاحبها جراء غرغرينا أصابت رجله.. فطمروا القسم الأكبر من الفخذ في هذا المزار.. وتركوا القدم بادية للعيان.. أحاطوا المكان بأسلاك شائكة وربطوا بالأسلاك بعض الأقمشة الخضراء وما شابه ذلك.

وبدأ الشيخ سعيد يعظ الناس أينما كان بهذه الكلمات:

«الذات المدفون هناك.. هو حضرة السلطان دبميك لقد أخرج قدمه من القبر.. لأنه رأى الناس يحيدون عن سواء السبيل. وليعلم الجميع أن كل من ينحرف عن جادة الصواب.. ستكون قدم حضرة السلطان دبميك خلفه. أيها الناس.. ليعد الخارجون إلى إيمانهم قبل أن يناله غضب حضرة السلطان... دخول السينما حرام والداخلون إليها في جهنم خالدون.. وليعلم الجميع.. أن كل من يدخل غير السينما الموجودة قريباً من مقام حضرة السلطان دبميك.. يكون مصيره النار».

توقَّف عملنا ثانية.. ولم تعد لكلمات الشيخ نوري أية فائدة.. ولم تعد لنظراته أية قوة.. وما معنى أن كل من يذهب إلى سينما أخرى تأتيه ضربة من السلطان دبميك.. يا أخي فكرت طويلاً بكلام الشيخ سعيد.. والله كلماته صحيحة.. أنا شخصياً أشعر بركلة بين حين وآخر.. فأنهض من نومي خائفاً مذعوراً.

ـ أمان يا شريف أفندي سنفلس.

ـ تمهل.. أعطني ألف ليرة.. وسيصبح الشيخ سعيد معنا.

ـ خذ ألفين يا أخي.

كتبت الجرائد الاستنبولية ذات يوم خبراً مفاده: أن سينما تهدمت وأصبحت على الأرض، في الليلة التي كانت قدم السلكان دبميك قد انسلَّت تحت التراب وأن السلطان دبميك قد سحب قدمه وأخفاها. بعد هذا بدأ الشيخ سعيد وعظه:

ـ أيها الأخوة المسلمون.. هل تعرفون لماذا تهدمت السينما في استنبول؟ لأنهم بنوا الصالة فوق مقام أحد الأولياء.. وحضرة الوالي اهتزَّ في قبره، فهدَّم السينما على رؤوس أصحابها. وأية سينما أخرى تبنى على قبر أي ولي كان ستتهدم.. فإذا ما ركل حضرة السلطان دبميك السينما ركلة خفيفة ستصبح على التراب.

فعزف الناس عن دخول سينما يحيى.. مما اضطره أن يرسل خبراً مع أحد الوسطاء:

ـ أمان لنلتق يا أخي..

فأجبته: ليذهب إلى الشيطان.. فعاد الوسيط وجاءني بخبر جديد مفاده

ـ الامر ليس كما تعرفه.. يجب أن نلتقي.

قلت لا بأس ليأتِ ونتقابل.

جاء حاملاً دفتراً بيده وقال:

ـ هذه المنافسة لا نهاية لها سنفلس معاً إن استمرت.

وبدأ بقراءة الأرقام التي دفعها وصرفها لإفلاسي.. للراقصة كذا ليرة.. للشيخ سعيد.. كذا.. أربع وعشرون ألف ليرة.

قلت: عشرة آلاف ليرة فهمتها ولكن أربع وعشرون ألف ليرة أين حسابها.

فقال: دفعتها لشريف أفندي.

كل هذه المقالب كانت من تخطيطه فعلاً ولم يعمل مجاناً.

أنا الآخر فتحت دفاتري.. دفعت ست عشرة ألف ليرة لشريف أفندي... نحن الاثنان ندير صالتين ومقابل عملنا ننال أجرنا، أما هو فيجمع المال دون تعب.. قال يحيى:

ـ تعال لنتشارك ونعمل سوياً.

سمع شريف أفندي بذلك فجاء وقال:

ـ شاركوني أنا أيضاً.

إنه مصيبة إذا لم ندخله شريكاً.. سيفتح أمامنا مشاكل كثيرة.

فأعطانا المبالغ التي دفعناها له نحن الاثنان.. ومقدارها ثلاثون ألف ليرة.. وصار شريكاً لنا من أموالنا. نحن الآن ثلاثة شركاء.

والربح يُقسم إلى ثلاثة أقسام.. عوضاً أن يكون الربح لي وحدي لأنني أنا صاحب العمل.

لكننا لم نقم هذه الشراكة برضانا يا سيدي. بل كنا مجبرين عليها.

١١

المفسد

كانوا جالسين أمام المقهى الواقع مقابل البلدية.. لا أثر للهواء.. ولا أغصان تتحرك.. ولا ذباب يطير.. الطقس حار جداً.. حتى المياه المتبخرة من الحوض الكائن وسط الساحة، كانت تنعكس موجات على واجهة الفندق الزجاجي المقابل.

قال مدرس الإعدادية:

ـ ماذا يفعل رجل لوحده، هو الآخر لم يشأ أن يبقى على ما هو عليه الآن.. أحاطت به مجموعة من الأوباش المتملقين، يطرون على مواقفه، وأن كل ما يقوله شيء جميل. إنهم يكذبون عليه بكل وضوح. يقولون عن الأسود أبيضاً والخطأ صواباً.. وهو يصدقهم. كيف يعرف أنهم يكذبون عليه. ولا يبادر أي منهم أن يقول له: ليا سيد إنهم يكذبون عليك ويخدعونك»، الصحيح هو كذا والصواب هو كذا. قال لهم يا أصدقاء.. أو سماهم أصدقاء.. تنسبون إليه كل المساوئ ماذا يفعل الرجل لوحده؟ لو صدقوا معه.. ولو عرف كل شيء على حقيقته لم يقم بأعمال كهذه.

قال دلال البلدية يوسف:

ـ كلامك صحيح.. لكن أليس له عقل مثلنا؟

قال الحلاق مصطفى:

ـ كلام المدرس صحيح.. من حوله هم من يخدعونه. فإذا لم يطلعوه

على الحقيقة كيف له أن يعرفها. ومن يعرف كل شيء لا يقوم بأعمال معيبة.

قال متقاعد السجل المدني وهو يرشف القهوة المحلية المصنوعة من الحمص:

ـ الحق يقال.. نحن من يحمله كل الذنوب.. أما الرجل فلا ذنب عليه مطلقاً.. والذنب الأكبر على من يخدعونه.. طوقوه من جميع الجهات. وأخفوا عنه كل شيئ حتى الحقيقة.. فالرجل ليس سيئاً أبداً لو عرف الحقيقة ووعاها.

قال رفعت آغا وهو يداعب حبات مسبحته الكبيرة.

ـ دعوهم يقولون ما يحلو لهم، فالرجل كبير، وعاقل، وليس امرأة يستطيعون خداعها. ما بالكم هكذا.. لقد شابت حواجبكم.. ولم تعد عقولكم إلى رؤوسكم بعد.. ألم تسمعوا أنني قبل ثلاثة عشر عاماً كنت شريراً. تعرفون أنه كان عندنا رئيس بلدية يدعى الدكتور مظفر..

قال الدلال يوسف:

ـ عرفته.. مظفر الأعور.. يقال أنه أصبح الآن تاجراً كبيراً في استنبول.

ـ هو نفسه.. الرجل الذي أصر كي يضمه إلى حزبه.

فقلت بنيْ لا فرق بيننا وبينكم.. فكونك حزبياً يكفي.. والحمد لله ألسنا كلنا من حزب واحد. فقال: «هذا أمر آخر تعال وانتسب إلى الحزب» كانت نيته سيئة.. لقد أدرك أن أصدقاءه يكرهونه.. ولذا كان يحاول التردد إلى الأقرباء ويجمعهم حوله. وكما تعلمون أنني زوجتُ ابنتي لفرحات ابن لألاغوز» وبذلك أصبحت أحد أقرباء رئيس البلدية.. ومن جراء الضغط الشديد من مظفر انتسبت إلى الحزب.. ثم قال لي: «رشح نفسك لعضوية المجلس البلدي، وبما أنه على الإنسان أن يفكر جيداً في بداية كل أمر كي لا يَنْخدع.. فالواحد.. واحد.. والألف.. ألف..

رشحت نفسي.. يومها قال لي رشيد أفندي إمام الجامع الكبير رحمه الله:

ـ «ولك عارف آغا.. لا تبهدل حالك بعد هذا العمر.. أنا أعرفك، أنت لا تستطيع أن تضبط لسانك.. ستتهزأ أمام الأولاد الصغار».

وبما أنني قبلت الترشيح فلم أستطع أن أتمالك نفسي وأتراجع.. كنت على درجة كبيرة من الحماس.. لم أفهم كيف حصل ذلك؟ والسياسة يا أخي تشبه القمار إلى حدٍ كبير.. إذا علقت مرة لا تستطيع أن تتراجع أو أن تتمالك نفسك ثانية.. وفيما نحن كذلك قال أحدهم: سيحضر مسؤول كبير من أنقرة.

قال الحلاق مصطفى متسائلاً:

ـ أي مسؤول يا عارف آغا؟

قال عارف آغا:

ـ لا أعرفه يا سيد مصطفى.. يقولون أنه معني بالشؤون الزراعية. لقد عم الارتباك مجلس البلدية، وصار الدكتور مظفر يطوف البلدة وكأن على رأسه الطير. ماذا جرى لك يا سيد مظفر تلف وتدور هكذا.. وكأن دبوراً لسعك.. ليأتي ويشاهد.. ليتفضل.. نضعه فوق رؤوسنا».

ـ آمان يا عمي ما الكلام الذي تقوله؟ إنه رجل صارم جداً. والله سيجعلنا كالدجاجة المسلوقة.. الرز غير متوفر في الأسواق وكذلك الصابون والسكر.. إذا عرف ذلك.. ينتف شعورنا.. وإذا سأل عن المدرسة الإعدادية؟ والطرق.. والماء.. آمان يا عمي والله سيقضي علينا.

ـ هل جننت يا سيد مظفر، إذا كان الرز مفقوداً.. فهل نحن جمعناه وطبخناه وأكلناه؟ وإذا كان الصابون غير متوفر فهل جعلنا من رغوته بالونات وأطلقناها في الهواء؟ أو كان السكر متوفراً فنثرناه على رؤوسنا؟ مفقود يعني مفقود.. لسنا السبب لعدم توفر كل شيء.. إذا كانت المدرسة الإعدادية غير موجودة هل كانوا قاموا ببنائها ونحن هدمناها؟

وهل نحن من خرَّب الطرقات؟ ولك يا مظفر لو وفروا لنا كل ذلك لكان موجوداً.. لماذا تخجل ولك ابني. ليأت ويرَ.

مهما حاولت إقناعهم.. فلن يسمعوا مني.. لقد هرب النوم عن جفون أعضاء مجلس البلدية.. يعملون على الدوام.. خلال يومين فقط امتلأت محلات البقالة بالرز والسكر والصابون.. تفقدوا كل المتاجر.. وطلبوا المواد من هنا وهناك.. حتى أمطروا البلدة بالمواد.. ولم يبق شيءٌ مفقودٌ. وقالوا: عندما يتحرك المسؤول الأكبر.. تتحرك قبله أكياس الرز وصناديق السكر.. وتفرش السجاجيد على الطرقات من المحطة.. حتى المكان الذي يقصده.

ـ ما هذا؟ ولماذا تفرشون السجاد؟

قال شو: كي لا يرى السيد الكبير الطرقات الوعرة أثناء سيره.

ـ ومن أين لكم كل هذه السجاجيد؟

قال شو: كل قرية تساعد البلدة المضيفة بالرز والسكر والسجاد والبسط.

ـ لنفرض أن السيد أراد زيارة خارج البلدة لإلقاء نظرة على الطرق الأخرى ماذا تفعلون؟

قال شو: لقد كلفوا رجالاً.. لجمع البسط والسجاد بعد مرور السيد الكبير عليها وفرشها في طرقات أخرى.

أصبحت البلدة مفروشة بالسجاد والبسط مثلها مثل الدوائر الرسمية

وصل السيد واستقبلناه في المحطة.. بدأت جوقة الموسيقى بالعزف أمام الضيوف، كما رفعنا يافطة بيضاء كتب عليها «فرقة موسيقى البلدية».

ـ الله.. الله.. ومنذ متى كان لبلديتنا فرقة نحاسية كهذه؟

ما نعرفه أنه لا يوجد سوى عازف مزمار واحد «يشا القرياطي» وقارعي

طبول.. هؤلاء فقط يزمرون ويطبلون في الأعياد والأعراس.

- ولك سيد مظفر.. من أين أتيت بهذه الفرقة النحاسية؟

- اسكت ولك عمي استأجرناها.

الباشوات استدعوا الفرقة النحاسية التابعة للولاية.

كان الأطفال واقفين على جانبي الطريق يصرخون «يعيش.. يعيش» الطفلان الأماميان يحملان يافطة.. كتب عليها «المدرسة الإعدادية».

- قاتلك الله ولك مظفر.. في العام الماضي فقط بنينا المدرسة الابتدائية.. وبدونها يستحيل بناء مدرسة إعدادية. من أين لك هذه المدرسة الإعدادية يا لعين؟

- اسكت ولك عمي.. رجونا الوالي.. فأرسل لنا طلاب إعدادية الولاية لمدة ثلاثة أيام. وكنا سنحضر طلاب الثانوية.. لكن الوقت أدركنا.

- توه.. أيها الأنذال.. لماذا لم تحضروا طلاب الجامعة أيضاً؟

الفتيات وقفن صفاً واحداً.. تقدمت أجملهن وقدمت للسيد باقة من الزهر.. فقال الدكتور مظفر للسيد:

- هؤلاء الفتيات من طلبة المعهد الفني للبنات.

والله بدي جن.. خفيت نفسي وراء الناس.. وبدأت أنتف شعر رأسي.

- ولك.. ألا تخجلون من خداع هذا السيد الكبير؟

لم أستطع أن أتحمل.. رجعت إلى البيت.. وعند المساء جاء مظفر إلى عندنا..

أمان بالله عليك يا عمي تعالى إلى البلدية.. سنقيم حفلة عشاء على شرف السيد الكبير.

قلت له:

- اذهب من هنا.. لا أريد أن أرى وجهك أيها الحقير. الجميل أن والدك المرحوم قد رحل باكراً عن هذه الدنيا.. لو كان موجوداً.. لبصق في وجهك أمام كل الناس.. ووسط الساحة وجعل منك عبرة لمن يعتبر.

- آمان يا عمي.

- لن أحضر يا بني.

- أستحلفك بالله يا عمي.

- عد من حيث أتيت والله لن أذهب.

- الوليمة لا طعم لها بدونك يا عارف آغا.

- ارحل.. اذهب.. وقل للسيد الوالي الذي أرسل لك كل شيء.. أن يرسل لك عارف آغا أيضاً.

اقتادوني قسراً إلى الوليمة.. متذرعين أن عدم حضوري يعني إلغاءها وقالوا: أن السيد سيلتقي أعضاء المجلس البلدي ويصافحهم فرداً فرداً. لقد أعدوا له مائدة.. تعجز سبع دول عن إعدادها. أكلنا وشربنا وانتقلنا إلى الحديث:

قال السيد: نقوم بتصنيع عربات خيول في معمل «آدي بازاري» هل اشتريتم منها؟

وإذا بالسيد مظفر يقول:

- أطال الله عمركم يا سيدي... بفضلكم أصبح كل قروي يمتلك عربتين بدل عربة واحدة.

قلت في نفسي «يا عمي هذا السيد ليس أحمقاً.. وسيعرف ويقدر.. من غير المعقول لأن يكون للفلاح الواحد عربتان والمؤكد أنه سيفهمهم جميعاً، وسيكشف تملقهم وزيفهم، وسيبصق في وجوههم أما انا فسأقبِّل يده إن فعل ذلك».

قال السيد:

ـ سعدت كثيراً.. كم عربة اشتريتم لتلبية حاجة بلدتكم؟

أخرج أحد أعضاء المجلس البلدي دفتراً من جيبه وقال:

ـ سأقدم لكم يا سيدي إحصاءً كاملاً بذلك.. في آذار ستة آلاف في شهر نيسان تسعة آلاف في أيار أحدى عشر ألفاً. وفي حزيران اشترينا ست عشرة عربة يا سيدي.. وبما أن كل هذه العربات لن تفِ بحاجتنا طلبنا من المعمل ثلاثين ألف عربة أخرى.

هاه.. الآن عرفت مصيبتك.. سنرى عندما يصق السيد في وجهك.

هل يعقل هذا الكلام.. يا قليل الإيمان لقد فاق عدد العربات عدد سكان البلدة.. ولك.. لو كان البلد كله معملاً.. لعجز عن صنع هذه العربات.

قال السيد:

ـ سُعدتُ كثيراً.. واليوم قمنا بتصنيع خلايا نحل عصرية.. هل اشتريتم منها؟

قال أحد أعضاء البلدية:

ـ بفضلكم يا سيدي.. اشترينا.. وأصبح في كل بيت أكثر من عشر خلايا.. وليس في قريتنا فقط بل في القرى المجاورة أيضاً.

واه منك أيها الحقير.. ألا تخجل من نفسك؟ قولوا ما بدا لكم أيها الأغوات.. هل رأى أحدكم خلية نحل واحدة في هذه المناطق؟ هل سمعتم من آبائكم أن مناطقنا جبلية.. رياحها عاصفة على الدوام. ولذلك يستحيل تربية النحل عندنا. هل يغفل السيد عن هذه الحقيقة؟ ليته الآن يطردك من مجلسه لترى مصيرك أيها الحقير!

قال السيد:

ـ إذن يجب أن يكون في ذلك فائدة لكم.

ـ طبعاً يا سيدي.. وبما أننا لا نستهلك كل العسل الذي ننتجه، عملنا على تصديره إلى استنبول وأنقرة بالقطار.

قلت هامساً في أذن مظفر:

لنفرض أنه طلب عسلاً الآن ماذا ستفعل؟ يستحيل عليك إحضار ولو قطرة واحدة.

قال: «اسكت ولك عمي.. لقد أحضرنا كمية كبيرة من العسل لأننا عرفنا سلفاً بأن السيد مولعٍ بتربية النحل ويسأل أينما ذهب عن النحل وتربيته فجهزنا أنفسنا جيداً».

قال السيد:

ـ قرأنا في بعض الصحف.. أن هناك نقصاً في بعض المواد كالأرز والسكر.. هل تعاني المنطقة من أزمة نقص هذه المواد؟

ـ أستغفر الله. ما هذا الكلام يا سيدي.. أراضينا بفضل كرمكم أراضٍ طينية، مائية، خاصة بزراعة الأرز.؟

تووه بكل وقاحة.. يخدعون الرجل الكبير.. يا أخي.. منذ بنيت هذه البلدة لم نرَ فيها حقلاً واحداً لزراعة الأرز.

وهل ينبت الأرز في السهول والجبال الكلسية؟ انتظروا قليلاً.. السيد الكبير يصبر عليكم.. كي يوصلكم إلى نهاية المطاف.. ثم سيمسك بزجاجة العرق هذه.. ويطردكم كلكم من هنا.. عندها سنرى مصيركم.

قال السيد:

ـ هل اشتريتم دواء ترشون به حقول القمح والشعير.. للقضاء على الآفات الزراعية؟

ـ نعم يا سيدي: بفضلكم أحضرنا مئتي طن من محلول «السلفات

النحاسي» أو الحجر الأزرق لكنها لم تكف فطلبنا ثلاثمائة طن أخرى.

إنهم يتحدثون بأقل من مائة وألف.. لقد نسوا الكيلوغرام.. وأطلقوا العنان لألسنتهم وأفواههم.. فلم تعد تنطق إلا بالأطنان.

قال السيد:

ـ أنا سعيد وسعيد جداً.

إذا كان المتملقون عندنا هنا في هذه البلدة الحقيرة.. يخدعون المسؤولين على هذا النحو.. فكيف يكون الوضع في العاصمة؟ يبدو أن لكل منطقة ممالئين خاصين محترفين.

طبعاً ما ذنب الرجل.. إنهم يخدعونه على الدوام.. «يا عيب الشوم عليكم» ما من أحد يقف ليقول الحقيقة.. كي يفهم الرجل ما يجري حوله من أمور.. إننا نحمله تبعة كل الأخطاء واه.. واه.. مسكين هذا الرجل.. انتظر سأطلعه على الحقيقة مهما كانت النتائج.

قال السيد:

ـ كيف حال الماء عندكم؟

قال أحد أعضاء البلدية:

ـ الحمد لله مياهنا غزيرة، نأخذ منها حاجتنا ونسقي بالفائض حقولنا لقد وصلت المياه إلى كل بيت.

لم أعد أحتمل ولن أستطيع السكوت عن كل ما يحدث.

وصرخت بأعلى صوتي:

ـ أيها السيد إنهم يكذبون عليك.. إنهم يخدعونك.. كل ما قالوه كذب.. زور.. بهتان.. حرام.

سحبني الدكتور مظفر من طرف سترتي.. وتعلق عضو آخر بساعدي.. وأنزل آخر ضربة قوية على خاصرتي من الخلف كي يسكتني.

قلت: يا بشر ألا تخجلون.. كفوا عن خداع هذا الرجل الكبير.

كانوا يحاولون إسكاتي ولجم لساني.. وأنا أصرخ.. وكلٌ منهم يضرب الآخر ويشده ليعيده إلى مكانه.

أما أنا فكنت أريد أن أقول للسيد كل ما أردت قوله:

ـ يا سيدي.. ما قاله هؤلاء أمامكم.. كذب بكذب.. فمن العربات كان نصيب بلدتنا عشرين عربة فقط. وكلها غير صالحة للاستعمال. لا زالت مكدسة في المحطة، لم يبتعها أحد كون أخشابها رطبة. أما بشأن النحل فلا يوجد خلية واحدة في كل هذه المناطق. لأن بلدتنا مرتفعة جداً وكثيرة العواصف ولا يصلح موقعها لتربية النحل مطلقاً. كل ما قالوه لك كذب.. أما حقول الرز.. التوبة لله.. لم نرَ في حياتنا حقلاً واحداً للأرز.. وإن وجد، فمن أين نأتيه بالماء؟ فالمياه الموجودة لا تسد حاجات المواطنين.

نعم وصلنا عدة كيلوغرامات من سلفات النحاس.. فأخذها أمثالي الذين لا يشبعون. هؤلاء المتملقون.. المتزلفون الذين يخدعونك.

شرحت له كل شيء.. كان الأعضاء يحاولون إبعادي.. أما أنا فتمسكت بالمائدة.. التي صارت بدورها تزحل معي نحو الباب.. تعلقت بغطائها فأوشكت الأطعمة الموجودة عليها أن تنقلب على الأرض. أما الدكتور مظفر ولشدة تعلقه بي.. أنزل بنطالي إلى الأرض.

عندما كنت أضع الحقيقة بين يدي السيد، كان وجهه يحمر ويصفر، وصار الغضب واضحاً عليه.. قلت المهم أنه عرف كل الحقائق. الآن سيبصق في وجوههم دفعة واحدة. غير أنه صرخ:

ـ أخرجوا هذا من هنا.

حملوني كقربة ماء وألقوا بي خارجاً.. ما هذا العمل؟ احترت في أمري.. ماذا أصابني؟ لم يغمض لي جفن من شدة الغضب الذي انتابني..

كانت التأففات تخرج من فمي كأنها خارجة من مدخنة. «قطار».. بوف... بوف..

صباح اليوم التالي قالوا لي:

ـ السيد ينتظرك في البلدية.

ذهبت.. كنا وحيدين في الغرفة.. قال:

ـ هل تحسب نفسك ذكياً أكثر مني؟

ـ التوبة.. أستغفر الله.

ـ معامل العربات أنا الذي بنيتها هل تظن أنني لا أعرف كم عربة أرسلت لكم؟

ـ تعرفون يا سيدي.

ـ إذا كنتُ أعرف، فلماذا أضفت أنت الماء على الطعام الناضج؟ أتظنني غبياً إلى درجة لا أعرف معها إن كان الأرز يزرع هنا أو لا، وخاصة في هذه الأرض الكلسية الجرداء؟

ـ طبعاً تعرفون.

ـ أو أنني لا أعرف إن كان النحل يربى هنا أم لا.. أم أنك أنت وحدك من يعرف؟ وكذلك مقدار الدواء الذي أرسلته إلى هنا؟ يعني هل نحن (..) أصنام.. أم أغبياء لا نملك عقولاً مثل عقلك؟

ـ أستغفر الله..

ـ حسن.. إن كان الأمر كذلك.. فلماذا تريد أن يبدو كل شيء أسوداً؟ لماذا تشي بالناس وتحاول خلق بلبلة؟ ها نحن نقوم بكل ما نستطيع عمله. فهل تريد أن يقولوا.. هذا غير متوفر، وذاك غير موجود، وهذا خَرِبَ، وذاك معطل فأنا على الأقل أعرف كل شيء مثلك.

قلت: سامحوني فلم أكن أعرف ذلك.

غادر السيد البلدة بمثل ما استقبل به من حفاوة وطردوني من الحزب لأنني مفسد. فاستقلت من عضوية مجلس البلدية.

قال أمين السجل المدني المتقاعد:

ـ ماذا تقول؟ الذنب ذنب المتملقين.. ألا يوجد شخص واحد يقول له الحقيقة.

غضب عارف آغا ووقف على رجليه:

يا عمي أولئك المسؤولون.. لا يروق لهم من يقول الحقيقة.. آن لكم أن تفهموا. وكأنهم لا يريدون أن يروا من يجابههم بالحقائق.

من أوعز إلى هذا المسؤول أن يجمع حوله المتملقين من جهة، ومن جهة أخرى يلقون باللوم عليهم. يا أخي لا يستطيع هؤلاء المسؤولون العيش بدون المتملقين والمتزلفين والمطبلين والمزمرين. لأنهم حال وقوعهم في خطأ لا يجدون سواهم من يلقون باللائمة عليه.

وسار بسرعة وغادر المكان.. قال الدلال يوسف:

ـ كل الذنب على المتملقين.. لأنهم لم يقولوا الحقيقة للرجل.

١٢

السكارى

الموضوع ليس كما تعرفه يا آغاتي.. وهل كنا سنرتكب ذلك الخطأ لو كنا نعرف؟ اسمع..

يمكنك مشاهدة مضافة القرية من ساحة المقهى.

خرج المختار منها مسرعاً.. وجرى نحو ساحة المقهى وهو يقفز، وكأن جنبه قد أصيب بحروق. قال العم خضر:

ـ ولك مختار.. إلى أين تركض كمن صدمت ركبته.

سأل العم خضر قائلاً:

ـ جنبنا الله الأخبار السيئة.. ماذا هناك؟

قال المختار:

ـ السيد قدري قادم.

ساد الصمت بعض الوقت.. حتى القهواتي داؤود بقي مسمراً، في مكانه بينما كان يأخذ كأس الشاي للبقال سليمان.

بعد مدة طويلة سأل العم خضر المختار:

ـ هل ما تقوله صحيح يا مختار؟

قال المختار:

ـ وصلتني الآن مكالمة من الشرطة.

غادرت مكاني بهدوء.. حاولت الالتفاف خلف المقهى لأهرب..

وأذهب إلى المصيف.. وأبقى هناك شهراً، خير لي من رؤية وجه من يسمى السيد قدري. وفيما كنت أمر قرب المرحاض الذي كان مكشوفاً من الأعلى والأمام.. ومحاطاً من جهاته الثلاثة الأخرى بالجنفاص.. قال المختار من خلفي:

- «وين رايح ولك؟» أقول لك أن السيد قدري قادم.. ألا تسمع؟ اذهب وقل لأبيك أن يذبح خروفاً.. سنقيم وليمة هذا المساء.

وقفت جامداً في مكاني.. أما المختار فقد التفت نحو داؤود القهواتي وقال:

- قل للبقال سليمان.. أن يخرج بعض قطع الثلج من البراد ويضعها على زجاجات العرق جيداً كي تبرد.. وإذا قال السيد قدري أن العرق حار.. فذلك يعني أنك قضيت على نفسك.. سينتفك كما ينتف الدجاجة.

ذهب القهواتي داؤود.. أما العم خضر فقال:

- متى سيأتي؟

قال المختار الذي كانت يداه مسبلتان إلى جانبيه:

- إنه في طريقه إلينا.

نهض العم خضر وقال:

- أي واه.. هل تريدون أن ينزل بنا العقاب بسبب هذا الشخص. هيا تحركوا...

ذهب كل منا باتجاه. أما أنا أسرعت إلى أبي وأخبرته بالأمر.

وما أن أنهيت كلامي حتى وقف بسرعة وضرب بكفيه على ركبتيه.. وتنهد طويلاً.

- أبي واااه.. ثم نادى أمي قائلاً:

ـ يا امرأة! أسرعي.. يا امرأة!

السيد قدري، سيد من الأشراف يمتلك كل شيء، الفندق في البلدة.. وصالة السينما.. والحاكي.. والمقهى.. والسوق ومرافق أخرى كثيرة لا أعرفها أما «ناجي» فهو سياسي كبير أنيطت به الأمور كلها وخاصة القضايا الحزبية.

لم أر في حياتي شخصاً يحبه.. وخاصة أهل قريتي الذين يكرهونه كثيراً. أما والحق يقال أن الرجل لم يسيء إلينا البتة.. لكنه دائماً متجهم الوجه.. لا يبتسم ولا يضحك.. إنه كالوحش.. كلامه غير مفهوم. عندما يتكلمَ يصدر حشرجة فقط. ولكن من نبرة صوته تعرف أنه يسب ويشتم.. يشوي من يقف أمامه.. ولا أعلم لماذا يثق بنفسه كل هذه الثقة.. يا حقير.. هل أنت عريف في الشرطة أم والي؟ إن كنت السيد قدري.. فسيادتك على نفسك وليس على الناس.

لقد حصل اضطراب في البلدة، فقد احترقت أهداب ثوب البقال سليمان.. قال العم خضر:

احضروا الطبل والمزمار.

المعلم غائب بسبب العطلة.. ومؤذن الجامع حسيب الذي هو في آن واحد، مؤذن وبواب المدرسة. جمع الأطفال.. وصفهم على الطريق.

قريتنا كبيرة لأنها ناحية.. نصف أهلها غائبون.. قريتنا يجب أن تكون مصيبة.

عند المساء ظهرت سيارة جيب في سهل القرية، ومن عادة السيد قدري الحضور إلى القرية بهذا النوع من السيارات، كانت الوجوه مكفهرة، لأنها سترى وجه هذا اللعين مرة ثانية.. فالظلام أوشك أن يخيم ولكن ما العمل.. خرجنا لاستقباله. خوفاً منه.

قال المختار:

ـ هيا بسرعة.. اجتمعوا.

خرجنا من الظلال إلى الأماكن المشمسة. قال العم خضر:

يا ناس ما بالكم ابتسموا بعض الشيء.

كيف نضحك ونحن على وشك البكاء. لأنه منذ وصوله سيبدأ بالشتائم:

ـ أنتم لن تصبحوا بشراً.

ـ المدنية بعيدة عنكم جداً.

تووه.. ما هذه الوجوه الكالحة.

يصرخ يشتم.. يأكل ويشرب ثم يذهب.

وصلت السيارة.. قال المختار للطبال «ماميش»

ـ هيا اقرع الطبل قرعات الاستقبال.

بدأ الطبال والزمار.. يرددان بعض الألحان.. فترجل شخص من سيارة «الجيب». ولكنه ليس السيد قدري. قال البقال سليمان:

ـ ماذا يا مختار قلت أن السيد قدري سيأتي؟

احتار المختار في أمره أيضاً وقال:

ـ يا شباب أليس هذا بالسيد قدري؟

لا يا حبيبي.. انظر إلى وجهه.. إنه يضحك.. أما السيد قدري فالنور يخافه ويهرب منه.

كان الرجل القادم يشبه السيد قدري. ولكنه ليس هو، فما أن ترجل من السيارة حتى عانق العم خضر وطوقه بساعديه. وقال:

ـ كيف حالك يا عم خضر؟ إنشاء الله أنت بخير؟

ترك العم خضر.. واتجه نحو المختار وقبله.. ثم عانق والدي.. وسار مع

حسين أفندي إلى حيث يقف التلاميذ.. فحمل أحدهم محتضناً.. ثم قذفه في الهواء واحتضنه طويلاً.. وعندما كان يقبل إحدى الفتيات الصغيرات تلوث وجهه ببصاقها وبإفرازات أنفها.. كان يترك واحداً ويحمل الآخر.

قال القهواتي داؤود للسائق يسأله:

ـ من هذا؟

ـ آمان.. ألم تعرفه؟ أليس هو بالسيد قدري؟

ـ واعجباه.. لقد تغير الرجل كلياً.. وتحول إلى بشر سوي.

سار في المقدمة.. ونحن من خلفه.. قاصدين المقهى.. والطبل والمزمار يعزفان. ورود وأزهار تتفتح في وجه السيد قدري.. وهو يوزع الابتسامات والضحكات ذات اليمين وذات الشمال.

قال أبي:

ـ على الأغلب أن الانتخابات أصبحت وشيكة على الأبواب، وإلا فلماذا يضحك هذا الرجل وبهذا الشكل غير المعتاد.

قال المؤذن حسين أفندي:

ـ لا للانتخابات ولا لسواها.. الرجل طيب هكذا..

جلس الجميع في ساحة المقهى.. توزعت كؤوس الشاي.. أما السيد قدري فقد تحول إلى إنسان متحدث.. يسأل عن مشاكل الجميع.. تحرك من مكانه فجأة وهو يقول:

ـ أستأذنكم.. فالإنسان لا يشبع من الجلوس معكم.

قال المختار وهو يمسك بيده:

ـ آمان.. بالله عليك يا سيدي.. ابقوا معنا حتى المساء.. فقد أحضرنا لك «كباباً» وزجاجات العرق البارد.. وصنعنا لك حلوى.. تليق بفمك.

قال السيد قدري:

ـ أدامكم الله.. وأبقاكم.. تعبتم من اجلي.. كلوا كل ما أحضرتموه من أجلي، ألف صحة وعافية.. أنتم لم تحضروا إلى المدينة أبداً ولم تزوروني ولم تشربوا معي ولو فنجاناً من القهوة المُرة. ولم تسألوا عني وعن أحوالي.

والله أنا عاتب عليكم كثيراً.. انتظركم جميعاً يوم الثلاثاء.. تعالوا لنأكل ونشرب.. ونتسلّى ونخلق عالماً جديداً.. في هذه الدنيا الفانية..

كان الجميع يحملقون فيه والحيرة أخذت منهم.

ـ سأنتظركم جميعاً.. لا تنسوا.. يوم الثلاثاء ومنذ الصباح الباكر.. إذا لم يحضر أحدكم.. لن أنظر في وجهه ثانية.. ولن أزور قريتكم مطلقاً.

وضع يده على كتفي فقلت له:

ـ جميعاً..

قال: الجميع.. من السبعة إلى السبعين.. الجميع.

ربت على ظهر حسين أفندي وقال:

ـ ستحضرون جميعاً.. سأنتظركم يوم الثلاثاء.

عانق البعض.. وقبّل البعض وصافح الآخرين.. وربت على ظهر البعض.. وفي آخر المطاف.. إذ به يُقبِل يد العم خضر، خطف العم خضر يده وهو في حيرة شديدة.

ـ آمان استغفر الله.

ركب السيد قدري السيارة. قال وهو يلوح بيده من نافذتها:

ـ أنتظركم يوم الثلاثاء. وإذا لم يحضر أحدكم.. سأزعل منكم جميعاً.

قال ذلك وغادر المكان.

ـ قال العم خضر:

ـ إنه رجل خلوق ونبيل.

وقال أبي:

ـ ما هذا الكلام.. إنه رجل ابن رجال.. هكذا يجب أن تكون الرجال.

قال المؤذن حسين أفندي:

ـ هل رأيتم تواضع هذا الرجل، إنه بعيد عن التكبر والغرور. يتحدث مع القروي بكل تواضع وكأنه لا فرق بينهما.

قال القهواتي داؤود:

ـ إنه الرقم الأول في هذا البلد.. لا مثيل له.

قال المختار:

ـ إنه طيب القلب جداً.. لو وجد اثنان مثل السيد قدري في هذا البلد لاختلف الأمر.

قال البقال سليمان:

ـ نحن نفخر ونعتز بأمثال السيد قدري على مدى برنا وبحرنا..

قلت للموجودين حولي:

ـ لو قال لي السيد مت لمت في مكاني من أجله.

خمسة أيام تفصلنا عن يوم الثلاثاء.. الاستعدادات عمت القرية. سنجلس مع السيد قدري.. نأكل ونشرب.. ونرفع الكؤوس سوياً.. البعض أخاط لنفسه ثياباً جديدة.. وآخرون ذهبوا إلى البلدة لشراء الملابس.

ليلة الثلاثاء خرج الجميع إلى الطريق ولم يبق في القرية سوى النساء

والأطفال. وسرنا جميعاً، الفرسان والعربات، وصلنا إلى المدينة ظهراً فألفيناها في صخب.. ما هذا؟ طوال حياتي لم أر ازدحاماً كهذا. هنالك مكان في مدخل المدينة.. أرض منبسطة تتخللها أشجار عالية أمام قصر الحكومة.. لقد احتشد الناس هنا وهناك يشربون العرق والزجاجات الفارغة متناثرة فوق الأعشاب كأنها سجادة قد فرشت فوقها. عندما شاهدونا استقبلونا ورحبوا بنا قائلين:

ـ تفضلوا يا أغوات.. تفضلوا يا أغوات..

احتار المختار في أمره وقال:

ـ ولك آمان.. أخشى أن يكون هناك خطأ ما.. نأكل ونشرب ثم يطلبون منا الثمن.

قال العم خضر:

ـ إذا طلبوا منا الثمن يكون سهلاً جداً. أما إذا قالوا بعد أن نتناول الطعام لقد حللتم المكان الخطأ..

تحت كل شجرة طبل ومزمار والفرق الموسيقية تعزف الألحان هنا وهناك.. بعضهم يرقصون «الجيفتاتللي» وآخرون يركلون بعضهم.

قال القهواتي داؤود للمستقبلين:

ـ يا أغوات.. نحن جئنا لزيارة السيد قدري.. يجب أن نراه.. أخشى أن نكون في مكان آخر.

ـ أهلاً وسهلاً بكم.. أهلاً وسهلاً.. هذه دعوة السيد قدري ونحن رجاله. تفضلوا.. أولاً فتشوا عن مكان جميل ترتاحون فيه.

اخترنا مرجاً فسيحاً وجميلاً وسط ساقية مياهها عذبة. وأحضرنا الخيول والعربات إلى مكان قريب منا وجلسنا وبدأت زجاجات العرق تنهمر علينا.

- اشربوا..

- سنشرب ونبيع أمه.

كل من ينهي زجاجة يرميها ويأخذ أخرى.. كان شخصان ينقلان إلينا الشراب والعرق دون توقف.. شربنا وشربنا.

قال المؤذن حسين:

- أريد شراباً فاخراً من نوع ليكور.

- من أي نوع يا آغاتي؟

- ليكن ليكوراً من أي نوع كان.

- اسمع هذا المؤذن.. من أين سمع باسم هذا الشراب؟

- تفضلوا..

جاءت زجاجات الليكور.. صار المؤذن حسين يعبئ زجاجات العرق.. نصفها ليكور والنصف الآخر عرق يمزجها جيداً ثم يشربها.

صرخ المختار:

- فودكا.. بسرعة أحضروا الفودكا أيضاً.

قال العم خضر:

- أحضروا كونياك أيها السفلة.

جاءت زجاجات الكونياك.. فمزج العم خضر الكونياك بالشراب ورشف منها.

أما نحن طاقم الشباب.. الذين لا يحق لنا الشرب أمام آبائنا، كما لا يحق لنا حتى السعال أمامهم.. كنا نشرب خلف العليقة بعيدين عن أعينهم.

بما أنني مزجت جميع أنواع الخمور وشربتها سألت رفاقي:

ـ يا شباب أتعرفون نوعاً آخر من الخمور؟

ـ نعم نعرف ولكنه غير متوفر هنا.

ـ ما نوعه؟

ـ ويسكي.

فصرخ: هاي.. أحضروا الويسكس.

وإذا بالرجل حمل ثلاث زجاجات ويسكي واتجه نحونا.

ـ تفضل..

هل فتحت مؤسسة تكل (المؤسسة الحكومية المنتجة للمشروبات الروحية والدخان والمواد الغذائية) على حساب السيد قدري؟

كان رجال قريتنا والقرى المجاورة.. مجتمعين قربنا فوق المرج. وكان على الضفة الثانية من النهر مجموعة من النَوَر نصبوا خيامهم هناك وتحلقوا يشربون مثلنا.

ـ قال المؤذن حسين صارخاً:

ـ يا شباب هل سنشرب مع القرباط؟

ـ النور يحيطون بنا من كل جانب، إنهم كثر في هذه المنطقة.

وفيما نحن نتجادل بشأن النور.. أقبل السيد قدري.

ـ أهلاً بكم يا آغوات.

انظر إلى هذا الرجل إنه يساوي بلدٌ بما فيها.

خبأنا الزجاجات احتراماً له.. فصار يعطينا الكؤوس ويسقينا بيديه وإذا بوالدي يصيح من مكانه.

ـ اشربوا يا شباب اشربوا..

قال العم خضر:

ـ نريد أن نطرد النوَرَ من هنا ياسيد قدري.
قال السيد قدري:
ـ لا تلمسوهم كلنا خلق الله.
والد هؤلاء النور آدم عليه السلام وهو نفسه والدنا أيضاً.. كلنا أخوة.
أترى السيد قدري هذا يا له من رجل.
قال ابن البقال سليمان:
ـ أنا سأقتل أبي.
ـ لماذا؟
ـ لا أحد يتدخل أريد أن أرميه بالرصاص.. إن كان أحدكم يحمل مسدساً ليعطني إياه باسم الإنسانية.
وفيما نحن على هذه الحال وإذا بالمختار والعم خضر يبدآن بالعراك ومشى عازفنا نحو الزمار النوري يريد ضربه.
قال المؤذن حسين صارخاً:
ـ هاي.. ولك هاي.. اليوم زمن المسدسات.
ـ أحب عيون حليب السبع هذا.. فالإنسان لا يمكن أن يهدأ دون أن يقتل أحداً.
امتد العراك إلى القرويين الأخرين أيضاً. أما أنا فقطعت غصناً من شجرة.. ورحت أنهال به ضرباً على كل من يمر أمامي أو أقابله. وفجأة وجدت نفسي ملقى على الأرض، بعد أن أصابت رأسي زجاجة فارغة. أما العم خضر فكان مرمياً جانبي.. يتقيأ كل ما في معدته.. وصار يسألني:
ـ هل تحمل سكيناً؟

لو كنت أملك سكيناً.. لألقيت بأكثر من خمسين شخصاً على الأرض.

حضر السيد قدري ثانية وبدأ بالصراخ:

ـ أيها الأخوة المواطنون.

عاد كل منا إلى وضعه الطبيعي.

قال السيد قدري:

ـ كلنا أخوة.. أصدقاء.. لبعضنا.

قال القهواتي داؤود:

ـ يا سيد قدري.. قل لنا من هو عدوك. حتى نشرب من دمه.

صرخ أحدهم:

ـ عدو السيد قدري هو عدونا.

وإذا بسبع سيارات تقف دفعة واحدة على الطريق وسمعنا صوتاً يقول:

ـ هيا أيها الأصدقاء.

اتجهنا صوب السيارات دفعة واحدة وبدأنا بالصراخ على الموجودين فيها.

- يووووو

احتار مستقلو السيارات.. رفع طبال قريتنا طبله في الهواء كي يضرب رأس أحد النازلين من السيارة.. وبما أنه كان قد ثمل تماماً ولا يستطيع الوقوف على رجليه، رفع الطبل وأنزله على رأس أبي فوصل حتى أسفل كرشه. أما الزمَّار فقد أنزل مزماره على رأس العم خضر.

وفيما نحن على هذه الحال من الفوضى والاضطراب صرخ النازلون من السيارات:

ـ درك شرطة.

قال السيد قدري لهم:

ـ اذهبوا من هنا هذا الشعب لا يريدكم.

أما الشرطة فقالوا لهم:

ـ اهربوا ونحن نحميكم.

في البدء ألقت الشرطة القنابل المسيلة للدموع.. والقنابل الدخانية..

لم ندر ماذا حصل.. هل تغيرت وجهة الريح فجأة.. أم أنهم لم يحسبوا للريح حساباً.. وكل ما حصل.. أنه في تلك اللحظات، بينما كانت المسافة بيننا وبين النازلين من السيارة عدة خطوات وفي الوقت الذي كنا سنهاجمهم.. وإذا بالدخان يتجه نحونا.. ويحيط بنا من جميع الجهات. ولكن بما أننا بدأنا فلن نتراجع. كنا وسط الغازات والضباب.. كنت أبكي من جهة، وأنزل عصاي على الرؤوس من جهة أخرى.. قبضت على أحدهم ووضعته تحت قدمي.. وهذا بدوره وضع شخصاً آخر تحته. وصار يضربه.

في هذه الأثناء زلت قدمي وبدأت بالطيران. ثم شعرت أنني أهبط نحو الأرض.

ولا أدري ماذا حصل بعد ذلك. فتحت عيني في الظلام. فوجدتني في أسفل الوادي.

وصلت القرية، في نفس الأسبوع رجع معلم القرية من عطلته.. وكان يحمل معه جريدة وهو يقول:

ـ تووه.. ماذا فعلتم؟

ـ ما فعلنا يا أستاذ؟

الذي فعلناه.. عرفناه من الجريدة التي كان يحملها الأستاذ.

ليس كما تعرفون يا آغاتي.. لقد اختلطت الأمور.. وبسببها حدثت تلك الأعمال المحزنة. عندما يلجأ الإنسان إلى مزج كل أنواع الخمور مثلما فعلنا. تكون جميع تصرفاته قبيحة.

١٣

الأشراف الوجهاء

هل تقول السيد علي؟ نعم.. نعم.. إنه من الأشراف.. وعندما نقول من الأشراف إنه فعلاً منهم. ورثه أباً عن جد أو من سبعة بطون. أما الوجاهة فقد حصل عليها فيما بعد.. نعم.. فيما بعد.. لكنه فاق كل الأشراف الحقيقيين. ولا احد يعرف مصدر ذلك. فهو غريب ليس من أهالي هذه المنطقة.. من أين لك أن تعرف ذلك؟ عندما قصد هذه البلدة ربما لم تكن قد وُلدتَ بعد.

إن أردت الحقيقة.. هنالك خمسة أشراف.. وكلهم غرباء من خارج هذه المنطقة.. جاءوا واستقروا هنا وأصبحوا محليين.

أحدهم شيخ زادة منصور.. يقولون أن والد والد والده ربما جاء من خراسان أو بخارى، ولم يكن يعرف كلمة تركية واحدة. وعندما كنا أطفالاً، سمعنا عجائزنا يقولون: «وعلى ذمتهم» أنه عند مجيئه كان يعرف التركية جيداً، ولكنه تجاهل ذلك، مدعياً أنه جاء من الهند أو من الصين، وأن ثمة أناساً يعرفونه من استنبول وأزمير. رجل تظنه أحد الأولياء الصالحين.. وهؤلاء جماعة الأولياء.. تراهم مرة هنا.. وأخرى هناك.. بطرفة عين ينتقلون من الهند إلى الصين وبالعكس.. هاي أيها الرجال المباركون هاي.. جاء بلدتنا وذقنه تطال صرته. أما أطراف جلبابه فكانت تلامس الأرض كما يدعون.. وبكل اللغات التي يعرفها كان يردد على الدوام.

ـ أنا شيخ حقيقي.

في تلك الأثناء لم يكن في بلدتنا شيخ.. كل منطقة لديها عدة شيوخ.. أما نحن فلا. وهذا ما كنا نُعاب عليه اتجاه العالم. وفيما كان أباؤنا يفكرون في البحث عن شيخ مناسب ظهر منصور هذا.. وبدأ يقول. «أنا شيخ».

عندما سمعوا ذلك وقعوا على يديه ورجليه.

ـ آمان شكراً لله.. كنا نبحث عن شيخ ولو من السماء.. فوجدناك على الأرض. وليس شيخاً عادياً.. بل من بخارى وسمرقند.. حيث يتخرج كل مشايخ الأرض، وأعلمهم فقهاً وأنقاهم إيماناً.

فبنوا له «تكية» أو مسجداً ومنزلاً وتزوج الشيخ وفق الشريعة أربعاً من بنات أغنياء هذه المنطقة.. الذين يعتبرون أشرافاً..

ومن الأغنياء والأشراف كان هؤلاء الشيوخ، وبما أنهم يملكون المال الوفير فقد علّموا أولادهم جيداً.. وأصبحوا رجالاً على أعلى المستويات. وبما أنهم وجهاء أيضاً فقد أصبح بعضهم موظفين كبار في دوائر الدولة والبعض الآخر رجال أعمال:

وعندما نبحث في أصول هؤلاء الأشراف نذكر «كومبوك أوغلولاري» والمعروف عنهم أنهم محليون.. لا بل أصبحوا محليين بعد إقامة استمرت عشرات السنين. فهو أصلاً ليس من بلدتنا، ويقال أن سكيراً ضخم الجسم عريض المنكبين وقف وسط ساحة البلدة في إحدى أمسيات شهر رمضان المبارك.. وبدأ بإطلاق الشتائم والصرخات المجنونة.. فاقترب منه أحدهم وقال له:

ـ شو ولك أفندي.. تصرخ وتشتم وتزمجر مثل مدفع رمضان.. ألا تخجل من نفسك؟

فصرخ السكير صرخة قوية: هايت ت ت ت وأخرج من جيبه سكيناً

وذبح الرجل وقطعه إرباً.

قبض درك ذلك الزمن على الرجل وأودعوه السجن.. وظل فيه اثني عشر عاماً.. وبعد أن أنهى مدة عقوبته.. بقي في البلدة. ولكن ليس غريباً كما في المرة الأولى.. فالجميع يعرفونه جيداً ويعرفون كم هو حقير وشرس.. لا احد يقترب منه أو يكلمه.

يطلب مالاً من هذا.. فيأخذه.. ويطلب ديناً من ذاك فيعطيه.. ويوماً بعد يوم توسعت أعماله وصار تاجراً.. تزوج بنت أحد الأغنياء فصار أبناؤه وأصهرته رجالاً كباراً.. هؤلاء هم أولاد كومبوك. أشراف من أشراف هذه المنطقة.

ومن الوجهاء أيضاً عائلة «هاليجبي زادلر» هم أيضاً محليون منذ ثلاثة بطون فقط.. عندما كنت طفلاً.. كانوا يحكون لنا ويقولون: أنه في أحد الأيام جاء رجل إلى هذه المنطقة، وبعد مجيئه فَقَدَ السوق حلاوته القديمة وهدوءه، وأمنه، حيث يُسرق متجر كل ليلة. وحتى ذلك التاريخ لم يتمكن أهل البلد من معرفة القائم بهذه السرقات. كانت شكوكهم تحوم حول الغريب.. ولكن.. الرجل لا يغادر الجامع في النهار أبداً. حاولوا القبض على السارق لكنهم لم يستطيعوا. وما أن يبزغ الفجر.. يدخل الرجل الجامع ولا يغادره إلا بعد صلاة العشاء. وبما أنه مسلم مؤمن لم يستطيعوا اتهامه وتحمل ذنبه. ذات يوم نقص سجاد الجامع.. فقرروا طرده من البلدة.. وصادف أن الرجل استأجر متجراً هناك. فتغاضوا عنه وتركوه. لأن السرقات بدأت تتلاشى بعد ملازمته المتجر وكان يبيع: أجزاء القرآن.. واللوحات ودعاء النملة.. ثم تزوج.. واستقر. مضت الأيام والسنون ونسي الناس السرقات، وإذا بسجاد الجامع المسروق يظهر في دكانه، فتجاهل الجميع ذلك. فالرجل متمسك بدينه، يساعد

الضعفاء واليتامى ويمدهم بالمال، فلم يستطيعوا أن يقولوا له شيئاً. ولكن من جراء ذلك العمل المخزي ذاع صيته وصاروا ينادونه «سجادي» نسبة إلى السجادة المسروقة. وأصبحت عائلته تسمى عائلة السجادية. وعندما تسألهم الآن سبب هذا اللقب يقولون لك أن آباءهم الأولون كانوا يتعاطون تجارة السجاد. وأصر الرجل على تعليم أولاده وصاروا كباراً وذوي مراكز مرموقة أيضاً.

أما عائلة «خوجة زادلر» فهم من الأشراف الحقيقيين تماماً.. وهم أيضاً ليسوا من بلدنا. يقولون أن فرقة مسرحية جوالة جاءت إلى بلدتنا منذ زمن طويل، ومسرحيات آنذاك لم تكن كما هي عليه الآن.. فالمواطنون القدماء لم يشاهدوا قط الفتيات والنساء الممثلات العاملات في المسارح. وعندما حلت هذه الفرقة في بلدنا أفسدت أخلاق المجتمع، لأن رئيسها كان يبيع البنات ويؤجر النساء.. الخ.. وبالنتيجة استقر المسرح في بلدتنا ولم يغادرها مطلقاً. ثم ما لبث الرجل أن اشترى المقهى الذي كانت تعرض فيه المسرحيات. وبعد ذلك تخلص من الفرقة فوزَّع النساء والفتيات.. وبدأ يعمل قهواتياً.. واستطاع أن يبني فندقاً فوق المقهى.. واستقر نهائياً.. وتاب كلياً عما فعله واقترفه من ذنوب.. وأطلق لحيته.. ثم لبس عمامة وسافر إلى الحج.. وفور عودته أصبح شيخاً.. هؤلاء هم «خوجة زاولر».

هؤلاء هم أشراف ووجهاء هذه المنطقة.. أما السيد علي فليس مثل هؤلاء.. إنه وجيه جديد. صار متأخراً جداً.. التوبة.. صار وجيهاً فيما بعد ولكنه وضع كل من سبقه في جيبه.

لا أدري لماذا.. لا يظهر وجيه واحد من أهالي منطقتنا؟ عبثاً يبدو أن ماء وتراب وهواء بلدنا لا ينبت أشرافاً ولذا فهم يفدون من الخارج ويصبحون أشرافاً فيما بعد.

وهل هناك مثل السيد علي يا عزيزي؟ علي.. بابه مفتوح. عيونه قانعة.. شخصية رائعة.. أحدث الوجهاء في بلدنا استقر عندنا بشكل نهائي.. وأي استقرار.. كما لو أن جذوره تأصلت وتعمقت في تربتنا. الشباب من أمثالك يحسبونه من بلدنا.. طبعاً خمسة وثلاثون عاماً ليست مدة قصيرة.. بل يمكن اعتباره مواطناً كبقية أبناء المنطقة.

نعم.. نعم.. الخان الذي على طريق السوق أصبح ملكه.. والمساكن المتراصفة على رأس التلة.. أيضاً.. ليس هذا فقط..؟ بل كل المحال في السوق له.. والحمام الذي يقع على رأس الجسر، والسينما، والصيدلية، والبيوت المجاورة.. طبعاً ولن ننسى «فندق كونفور بلاس» ونظراً لتقدمه في السن تعذر عليه تفقد المعامل والمزارع فتركها كلها لأبنائه وأصهرته.

عندما جاء إلى بلدنا.. كان قد ناهز الأربعين من عمره.. وما يثلج الصدر أنه لم يفد قبل ذلك.. لأنه تعب بسرعة.. فلو جاء في مقتبل عمره لما ترك مجالاً لأحد كي يقف على رجليه.. لقد اشترى كل شيء صدقني.. حتى بناء الحكومة أصبح ملكه. وكذلك بناء البريد الذي عادوا واستأجروه منه، ولا تنسى أن مديرية المالية والمدرسة الابتدائية هما أيضاً من أملاكه.. وبناء المخفر أصبح ملكاً للسيد علي.

لا أحد يعرف السيد علي مثلي أبداً.. كنت أمتلك فندقاً آنذاك.. مقابل المحطة.. جاء هذا الوجيه الذي يعد من أشرافنا واشترى الفندق مني، وهدمه بعد أن شغله ثلاث سنوات.. وبنى مكانه.. هذه السينما الموجودة حالياً.

ذات يوم جاء هذا السيد إلى فندقي.. ولم يكن قد أصبح سيداً بعد. شخص واحد غريب.. اسمه علي.. جاء واستقر في الفندق. الطابق الأرضي مطعم.. ومقهى.. كان يأكل في المطعم، ويجلس في المقهى..

وينام في الغرفة. ولم يدفع قرشاً واحداً. حتى ثمن سجائره وجريدته كانت على نفقتنا. قال موجهاً كلامه للنادل:

ـ اشترِ وسجل على حسابي.

خمسة أيام.. عشرة أيام.. شهر كامل استمر في سلوكه هذا.. أرسلت كاتب الفندق إلى غرفته ليطلب منه الأجور المترتبه عليه. فاتجه ماشياً نحو الكاتب وهو يقول:ـهل انفجرتم ولك.. لست هارباً من هنا.

كان يرسل ثيابه للغسيل.. ونحن ندفع الحساب.. كنا نتحمل جميع مصاريفه.. أنا شخصياً لا أشعر بأي خوف.. سأطرده.. ولكن ديونه ستموت. فانتظرت عسى ولعل نستطيع الحصول على حقنا.. نريد الحصول على الحساب.. لأن حالنا كانت تسوء يوماً بعد يوم. وفي صباح أحد الأيام طرقت بابه ودخلت.

ـ بدنا مصاري يا صاحبي.

بدا وكأنني لم أقل له شيئاً على الإطلاق.. هل تعرفون ماذا قال لي:

ـ تفضل يا عمي.. أعجبتني بلدكم هذا كثيراً.

ـ فأجبته.. أنا الآخر لو تيسر لي مكان كهذا (الخبز من الناس والماء من النبع) لأعجبني كثيراً.

الشخص لا يكترث أبداً فقال:

ـ أريد أن أستقر هنا.. هل تعرف بيتاً معروضاً للبيع؟ شريطة أن يكون في مكان جميل.. بيت كبير.. سأدفع كل ما يطلبون ثمناً له. يكفي أن يكون جميلاً وكبيراً.

نظرت وإذا بالرجل ليس كما ظنناه.. يومها كان السيد عاصم متضايقاً.. يريد دفع قرض المصرف.. ويريد بيع قصره في المزرعة. أخذته إلى القصر.. وبسعر العملة آنذاك طلب منه السيد عاصم ثماني عشرة ألف

ليرة.. والله يستحق القصر السعر.. قصر كبير وعريض.. له حديقة كبيرة.. قال له السيد علي:

ـ ليكن.. اشتريت هذا القصر.. فقط أعطوني مهلة يومين.

يا أخي.. لم يمر يومان.. وإذا بالسيد عاصم يحضر إلى الفندق وهو ينتف شعر رأسه نتفاً.

ـ آمان بالله عليك يا عاصم أفندي.. ماذا جرى لك؟

سقط الرجل على الأرض.. كانت شفتاه ترتجفان.. ولا ينبث ببنت شفة. قال: الرجل باع قصري.

ـ أي رجل؟

ـ ذاك الذي أحضرته لي.. إنه علي القليل الناموس.

ـ ولك أخي.. وكيف يبيع قصرك؟

ـ باعه.. وقبض خمسة آلاف ليرة عربوناً عنه.

فهمنا الموضوع.. عندما عرف السيد علي هذا الذي هو من الأشراف أن قصر السيد عاصم معروض للبيع وجد له من يشتريه وقال له: القصر لي. والقصر الذي كان سيباع بثمانية عشر ألفاً.. وهو ثمن بخس.. باعه باثنتي عشرة ألفاً.. وهل يعاف عاقل هذه الصفقة. فأعطاه على الفور خمسة آلاف ليرة عربوناً.. والسيد علي هذا الوجيه قبض العربون.. واختفى عن الأنظار. لم يحضر إلى الفندق تلك الليلة. ثم سمعنا بعد يومين أنه اشترى متجراً في السوق. وعندما أقول اشتراه يعني نه لم يدفع ثمنه. اتفقا على مبلغ عشرة آلاف.. دفع ألفي ليرة عربوناً وسيدفع الباقي فيما بعد.. مساء ذلك اليوم سمعنا خبراً جديداً مفاده أنه اشترى حقلاً بعشرة آلاف ليرة.. دفع ألف ليرة عربوناً.. وسيدفع الباقي فيما بعد.

بدأ الجميع بمطاردة السيد علي هذا الوجيه.. ولكن ما من أحد استطاع القبض عليه.. وفيما نحن على هذه الحال، سمعنا أن السيد علي الذي اشترى متجراً ودفع عربونه ألفي ليرة قد باعه بسبعة آلاف.. ومن ذا الذي لا يشتري ذلك المتجر بسبعة آلاف؟ هنا بدأ صاحب الدكان مطاردة علي.. كما وسمعنا أنه باع الحقل الذي اشتراه بعشرة آلاف ليرة ودفع ألف ليرة عربوناً له قد باعه لشخص آخر بأربعة آلاف ليرة.. غير معقول؟ هذا الوجيه علي يبيع ويشتري على الدوام.. لنقل منزلاً أو حقلاً.. يدفع لصاحبه ألف أو ألفي ليرة كعربون ثم يبيعهم بأرخص من الماء للآخرين. فعندما يدفع عربون عقار ألف ليرة يبيعه بأربعة آلاف فيكون ربحه ثلاثة آلاف ليرة. لم يستطع أحد العثور عليه.. وكنا نسمع على الدوام أنه يشتري ويبيع لذاك.. ويشتري من ذاك ويبيعه لهذا.

مساء أحد الأيام جاء عاصم أفندي إلى الفندق وقال:

ـ ولك أخي.. والله جنينا على الشخص.. فالرجل خلوق وشريف. بالأمس جاءني ودفع لي كامل مبلغ الثماني عشرة ألف ليرة.. وذهبنا إلى العقارية وتنازلت له وتصالحنا.

وهكذا أصبح السيد علي زبوناً ملازماً لقصر عاصم أفندي.. وذات يوم جاءني الرجل الذي دفع له خمسة آلاف ليرة عربوناً لشراء القصر وقال لي:

ـ سمعت أن رجلاً اسمه علي ينام في فندقك لقد نصب علي وأخذ مني خمسة آلاف ليرة. وأخيراً عرفت أن القصر ليس له.

قلت للرجل:

ـ القصر الآن صار ملكه.. ابحث عنه.. فهو لا ينام عندنا.

ذهب الرجل وعاد بعد يومين وقال:

ـ الرجل صادق وشريف.. لقد أعاد لي العربون كاملاً.. وأعطاني خمسمائة ليرة أخرى لأنه تراجع عن كلامه.

بعد ذلك سمعنا أنه اشترى الحقل الذي دفع عربونه ألف ليرة.. وسلم صاحبه باقي الثمن وقدره عشرة آلاف ليرة وأصبح الحقل ملكه.

في إحدى الأمسيات جاء علي هذا إلى فندقي وقال لي:

ـ المعذرة لم أتمكن من زيارتك لأدفع الحساب.. كم حسابي عندك؟

وبعد أن سدد حسابه البالغ إما مئتي ليرة أو ثلاثمائة.. دفع للكاتب ثم للنادل مكافأة.. وقال لي:

ـ إذا سأل أحد عني فأنا في القصر أرسله لي.

أخذته من يده وسألته:

ـ يا صاحبي.. ماذا فعلت هنا.. وما هي الأعمال التي تقوم بها؟ اشتريت المتاجر والحقول.. من شخص وبعتها لآخر ماذا تخفي وراء ذلك؟

شرح لي بواطن الأمور. قال: أنه عندما كان ينام في فندقي لم يكن يملك عشر بارات.. وصار يأخذ من أحدهم خمسة آلاف ليرة كعربون على أن يبيعه قصر عاصم أفندي وما يلبث أن يدفع المبلغ نفسه كعربون لشراء حقل وعدد من المتاجر.. ثم يبيع المحلات التي اشتراها بأبخس الأثمان.. واختلط الحابل بالنابل وانقلبت الأمور فوقاني تحتاني ولم يعد أحد يعرف البائع من الشاري.

وقفت جامداً أنظر إلى وجهه ومندهشاً.. قلت له:

ـ يا صاحبي أخيراً يقبضون عليك.. ويتهمونك بالنصب والاحتيال. قال:

ـ لا أحد يستطيع أن يقبض علي.. فأنا لست نصاباً لأنني أدفع حساب الجميع.. انظر دفعت ثمن القصر.. وثمن المتجرين والحقل والبيوت الثلاثة وبقي هناك بيوت ومتاجر أخرى كثيرة لم أدفع ثمنها. ولكنني سأسددها بالتقسيط.. عندما جئت إلى بلدكم قبل ثلاثة عشر عاماً لم أكن أملك خمسة قروش.. أما الآن الشكر لله.. أملك القصر ومتاجر.. وبيوت.. وبساتين وحقول.. فكيف يقبضون علي بتهمة النصب؟ هل يستطيعون ذلك؟ يزورونني ويصلون على النبي.

لم يمض على ذلك سوى ساعات وإذا بعلي هذا الوجيه.. يقلب الأمور رأساً على عقب.. لم يترك شيئاً إلا وباعه من الأراضي والمحلات والبيوت كان يبيع مال الغير للغير.. يأتي الرجل إلى متجره فيجده مباعاً إلى غيره. ويقول:

ـ يا ناس أنا لم أبع متجري.

يخاصمون بعضهم.. وعلي غير موجود في المنطقة.. وبعد خمسة أيام أو ستة جاء الوجيه علي.. يدفع لصاحب الدكان حقه كاملاً ويشتري الدكان. أما إذا كان صاحب الدكان لا يريد بيعه فيعيد للآخر عربونه كاملاً.

جيوب علي مليئة بالأموال ليست له.. بل لهذا وذاك.. ولكن بعد فترة وجيزة تتحول هذه الأموال إلى حسابه الخاص.

صباح أحد الأيام جاء كاتب الفندق وهو يتنفس الصعداء. وقال:

ـ آمان يا ناس.. يقولون أنهم قد باعوا فندقنا.

أسرعت إلى الفندق وإذا برجل ينتظرني هناك. قال:

ـ هذا الفندق لي.. دفعت عشرين ألف ليرة عربوناً. والآن سيحضر السيد علي وسنذهب إلى العقارية للتنازل.

ـ يا أخي.. كيف تبيع فندقاً لا تملكه ولمن؟

اشتبكنا مع الرجل.. الفندق لي.. لا لي أنا.. كل واحد منا أطبق بيده على عنق الآخر يريد خنقه فأسرع الحاضرون وفرقوا بيننا. في ذلك اليوم لم يأتِ على الوجيه. ولكنه حضر بعد أربعة أيام.

هجمنا عليه معاً نريد قتله فقال:

ـ رويدكما بعض الشيء يا أخي.

والتفت صوبي وقال:

ـ ألا تريد بيع هذا الفندق؟

ـ لا لن أبيعه.

ـ حسن كما تشاء كما تشاء يا أخي.

أخرج من جيبه كيس نقوده عشرين ألف ليرة وقال له:

ـ خذ هذه نقودك.

لم يترك علي الوجيه.. لا أرضاً ولا بيتاً ولا متجراً في هذه المنطقة إلا وباعه.. أما فندقي فقد باعه ست مرات.. في النهاية فهمت أنني لن أقوى عليه. بعته الفندق بثمانين ألف ليرة وتخلصت من شره.

هذا هو الشريف علي.. إنه علي بشكل مثير باركه الله، لقد أصبح عجوزاً هرماً ترك البيع والشراء. كان إذا قصد قرية فيها بيتان يبيع أرض أحدهما إلى الآخر. ثم بعد فترة يتحول إلى مالك القرية والأراضي والمحلات. وكيف يحدث ذلك لا أحد يعرف. يأخذ من هذا ويعطي لذاك.. لكنه لا يهضم حقوق الناس أبداً.

صحيح أنه جاء متأخراً ولكنه فاق كل الأشراف يا أخي. لو أنه جاء إلى بلدتنا في العشرين من عمره لما ترك لأحد قطعة أرض يدفن فيها.

هذه قصة حياة الوجهاء عندنا.. كلهم غرباء.. كلهم جاؤوا من الخارج وصاروا أشرافاً.. والشكر لله.. وبما أن شعبنا ذوّاق وشريف وخلوق فلن يخرِّج شريفاً واحداً.

١٤

الدب الراقص

إنهم أربعة أصدقاء. عمل كل منهم يختلف عن عمل الآخر.

الأول كان عاملاً قديماً، والأصح أنه كان عاملاً. وبما أنه نقابي قديم فلا يعتبر عاملاً بالمعنى الحقيقي. ومنذ أن انتقل من العمل الحقيقي إلى العمل النقابي ارتفع مستوى حياته كلياً.. واتسعت آفاق معارفه، وازداد شغفه بالموسيقى مثل المثقفين.. فأينما يذهب يحمل معه مذياعه الصغير.. وآلة التسجيل.. والحاكي والاسطوانات.

أما الثاني.. فكان قروياً.. ولكنه ليس من القرويين الفقيرين المحتاجين.. كما لا يعتبر غنياً كباقي الأغنياء. يعمل في أراضٍ خصبة قريبة من المدينة. ترك المدرسة في الصف الثاني الإعدادي.. يقضي معظم أوقاته في منزله الصغير الكائن وسط المدينة.

والثالث كان موظفاً من ذوي الدخل المحدود متوسط الحال، مرتبه يكفيه ولا يحتاج لأحد، وأمله الوحيد أن يحال على المعاش في مقتبل العمر ويؤمن لنفسه عملاً آخر.

أما الرابع فكان حرفياً صغيراً يسكن بيتاً بالأجرة ولكنه يملك سيارة اشتراها بالتقسيط.

هؤلاء الأصدقاء الأربعة.. لهم اهتمامات سياسية كبيرة.. كل منهم ينتسب إلى حزب مختلف ويقرؤون جرائد مختلفة.

العامل النقابي كان منتسباً إلى «الحزب الإجتماعي الديمقراطي» أما

القروي فكان منتسباً إلى «الحزب الديمقراطي القروي» والموظف إلى «حزب الشعب الجمهوري» ويمنحه أصواته في الانتخابات. أما الحرفي فكان منتسباً إلى «الحزب الليبرالي الديمقراطي».

إذن ما هي الرابطة التي كانت تجمع بين الأصدقاء الأربعة المختلفين حزبياً.. وفكرياً.. حتى في قراءة الجرائد.. كل واحد منهم يقرأ جريدة لا يحبها الآخر، أما الشيء الوحيد الذي أجمع عليه الأربعة هو معاداتهم جميعاً لحزب خامس.. هذا الحزب الذي أصبح عاملاً هاماً في تآلف الأصدقاء الأربعة.

قرر هؤلاء الأربعة أن يقوموا في يوم أحد برحلة استجمام إلى إحدى الغابات البعيدة عن المدينة، ليحصلوا على قسط من الراحة والهدوء في أحضان الطبيعة.

بدأوا الرحلة قبل بزوغ فجر اليوم المحدد بسيارة الموظف. حملوا معهم الطعام والشراب وكل ما يلزمهم في رحلتهم هذه.. العامل النقابي أخذ معه الحاكي واسطواناته، أما الموظف فقد حمل معه كل جرائد صباح ذلك اليوم.. والقروي أخذ معه بلطة، درءاً لكل خطر قد يصيبهم. وبعد ساعتين من السفر في طريق سهلية.. وصلوا إلى غابة حيث تركوا سيارتهم في مكان آمن منها.. ودخلوها قاصدين أعلى مرتفع فيها. أنسامها الناعمة الرطبة خففت عنهم حرارة ذلك اليوم الصيفي القائظ.. فانتقوا مكاناً سهلاً منبسطاً تكسوه الأعشاب الخضراء وإلى جانبه نبع.. تتفجر مياهه من الصخور.. باردة كأنها تذوب من جليد. أعجبهم المكان.. فوضعوا أمتعتهم وطعامهم وشرابهم.. ووضع النقابي الأسطوانة على الحاكي، وأشعل القروي ناراً على الفور.. وفتح الموظف زجاجات الخمر ووزع الحرفي الأطعمة وأخرج الفواكه.. وغسل العنب في الماء البارد. وصنع السلطة والمقبلات.

جلسوا على الأرض كما يحلو لهم.. وصارت أحاديثهم تكبر وتتسع باستمرار.

قال العامل النقابي:

ـ في منزلي أعزف الموسيقى على الدوام. وأحب الاستماع إليها وأنا في الحمام. ولاحظت أنه إذا كانت الموسيقى التي أسمعها موسيقى راقصة وسريعة فإنني أغسل رأسي بسرعة أما إذا كانت الموسيقى خفيفة الإيقاع هادئة أغسل رأسي رويداً.. رويداً.

قال الموظف:

ـ يا للمصادفة الغريبة.. أنا كذلك، إذا كانت الموسيقى سريعة أقود سيارتي بسرعة على هوى تلك الموسيقى. مرغماً. أما إذا كانت الموسيقى بطيئة فأقود سيارتي ببطء أيضاً.

ثم تحدثوا في السياسة، كل منهم في حزب، لكن أحزابهم كلها كانت تعمل من أجل رفعة شأن الوطن. ولكن لكل حزب طريقته الخاصة في إعمار البلد ورفع شأنه. أما الحزب الخامس الذي يعتبرونه عدواً لدوداً لهم فهو الذي يعمل لمصلحة الأجنبي ويدافع عن مصالحه. والعاملون على قيادة هذا الحزب باعوا أنفسهم للشيطان. وهم خونة حقيقيون.. شتموهم كثيراً وبملء أفواههم. وعند تصفح جريدة ذلك الحزب.. كانت المقالة الإفتتاحية تقول «على جميع فئات الشعب أن تتوحد من عمال وموظفين وحرفيين وقرويين» وفي مقال آخر تقول «إنكم تلقون بأنفسكم في أحضان أعدائكم» جاء أحد الكتاب يعطي دروساً للقراء ويعظهم فيقول «ميّزوا بين أعدائكم وأصدقائكم».

قال العامل:

ـ نحن نعرف من هو العدو الحقيقي لنا.

وقذف بالجريدة التي كان يحملها بيده بعيداً

كلما فرغت زجاجة من الخمر.. كانت الأخرى تُفتح على الفور.. لقد ثملوا على نحو لذيذ.. بدأ القروي بالغناء على أنغام الموسيقى المنبعثة من الحاكي.. قال الحرفي:

ـ أسمع صوتاً غريباً متجهاً نحونا.. ألا تسمعون؟

قال العامل:

ـ لا ولك روحي.. هذا صوت آلة الإيقاع.

ـ لا.. اسمع همهمة.. تقترب منا باضطراد.

قال الموظف الذي كان يرقص على صوت الموسيقى:

ـ على الأغلب أنك سكرت تماماً.. هكذا يتراءى لك.

وفجأة توقف عن الرقص.. لأنه رأى دباً قادماً نحوه، ماشياً على قائمتيه الخلفيتين. أما القروي فلم ير الدب، لأنه كان يجلس عكس اتجاه سيره. فرَّ الحرفي مسرعاً داخل الغابة عندما رأى الدب.

شعر العامل بهروب الحرفي من صوت هدير السيارة. أما الموظف فقد اصفر وجهه وسقط على الأرض مغشياً عليه من شدة الخوف.

عندما رأى القروي الدب متجهاً نحوه.. قصد شجرة كبيرة واختبأ خلف جذعها ولكن الدب لم يتركه.. جرى خلفه.. لأنه أقرب شخص إليه وراح يطارده. كان الدب والقروي يدوران حول جذع الشجرة.. القروي يهرب والدب يطارده.

فكر القروي بتسلق الشجرة.. غير أن الدب باستطاعته تسلق الشجرة أيضاً، وإن حاول الهرب لتمكن الدب من إمساكه. وصار يهرب أحياناً من يمين الجزع إلى يساره وتارة بالعكس.. محاولاً تهدئة الدب وخداعه. ولكن دون جدوى. فالدب من شدة غضبه أحاط جزع الشجرة بقائمتيه الأماميتين وهو يصيح غاضباً محاولاً القبض على القروي. أما الأخير

عندما فهم أنه لا مناص من حركاته هذه قبض على قائمتي الدب الأماميتين وشدهما وبدأ ينادي أصدقاءه:

ـ لقد قبضت على الدب.. تعالوا من خلفه واضربوه على رأسه واقبضوا عليه.

قال العامل الذي كان واقفاً على ظهر السيارة:

ـ بماذا نضرب هذا الدب الكبير؟

قال القروي:

ـ لقد أحضرت معي بلطة وهي في صندوق السيارة.

تذكر العامل.. أن الحرفي أخذ السيارة والبلطة داخلها.

هذه المرة.. طلب القروي المساعدة من الموظف.. ولكن هذا الأخير أيضاً كان جثة هامدة لا حراك فيها.. لدى رؤيته الدب الكبير. وقد ملأ ثيابه بوسخه من شدة الخوف.. واستحال عليه الهرب. ولو كانت لديه قدرة على الهروب.. لهرب منذ وقت طويل.

نادى القروي صديقه العامل:

ـ إذن تعال أنت وساعدني.

قال العامل:

ـ وماذا بمقدوري فعله لهذا الدب الكبير؟

خذ حجراً كبيراً واضرب به رأسه.

ـ لا أستطيع.. لأنني لم أقتل دباً في حياتي بحجر. أجهل كيفية ذلك.. ولنفرض أنه غضب مني. فيتخلص منك.. ويفترسني وبما أنك قابض عليه.. فاصبر وتمالك نفسك.

قال القروي:

ـ ولكنني تعبت.

ـ شد على أسنانك واصبر.

قال القروي صارخاً:

ـ لعنك الله.. إذا لم تشأ مساعدتي فماذا تفعل هنا.. اهرب كما هرب الحرفي انصرف من هنا يا جبان.

قال العامل:

ـ بما أنه أخذ السيارة.. طبعاً لا أستطيع السير حتى المدينة.. لربما ظهر دب آخر أمامي؟

قال القروي:

ـ لقد انهارت قوة ساعدي.. سأترك الدب.

قال العامل:

إياك أن تفعل ذلك.. سيفترسك أولاً وبذلك نتخلص نحن منه.

رجا القروي الموظف الملقى على الأرض كي يساعده.. قال الموظف:

ـ لو كان باستطاعتي لا أبخل في مساعدتك. فوضعي سيء جداً، تحتي وفوقي.. مبلل، ورائحتي كريهة قال ذلك وبدأ بالبكاء.

عاد القروي يصرخ في وجه العامل:

ـ ولك.. على الأقل أخرس هذه الآلة.

قال العامل الذي وضع اسطوانة جديدة على الحاكي

ـ وما الضرر في ذلك؟

قال القروي:

ـ ألا ترى.. إن الدب يرقص على أنغام موسيقا اسطوانتك.. وبما أنني ممسك بأماميته فأنا أيضاً مجبر على الرقص معه.

وحقيقة كان القروي والدب.. يرقصان حول جزع الشجرة وهما يدوران.

كان الموظف ينظر إلى الدب وإلى صديقه القروي وهما يرقصان.. ويقول للعامل:

ـ من المؤكد أن هذا الدب كان ملكاً لإحدى قبائل الغجر.. فهرب من صاحبه قاصداً الغابة. وإلا فكيف يعرف دب عاش في الغابة هذا الرقص الجميل.

قال العامل:

لا أعتقد فدببة الغجر لا تستطيع ممارسة هذه الرقصة الجميلة والمتوازنة.. انظر إلى حركاته.. فأية اسطوانة أضعها يرقص على نغماتها.

قال القروي الذي غرق في عرقه ودمائه:

ولك أخي والله تعبت من كثرة القفز والدوران أما عندك بعض الإنصاف؟ بما أنك لا تسكت ولا تخرس الحاكي ضع أسطوانه فيها موسيقى بطيئة على الأقل حتى نرقص رويداً رويداً.. لأنه بسبب هذه الأنغام السريعة تعبت أنا والدب تعب من كثرة الرقص والقفز.

قال العامل:

ـ عندما خرجت من البيت.. لم أكن أعلم أنك سترقص مع الدب.. أحضرت معي موسيقى راقصة إيقاعاتها سريعة.

بدأ رأس القروي بالدوران من شدة التعب.. وأوشك أن يترك أماميتي الدب.. وليحصل ما يحصل.. كما أوشك أن يقع على الأرض.. فشاهد الجريدة التي رماها قبل قليل وقد كتب فيها «أيها العمال والموظفون والحرفيون والقرويون اتحدوا». وكُتب أيضاً «إنكم تقفزون على أحضان عدوكم».

أُفلتت قائمة الدب من يد القروي.. وبغريزة حب الحياة أعاد القروي قائمة الدب وأمسكه ثانية.. وبدأ بالرقص والقفز من جديد. قال العامل للقروي الذي كان يرقص على أنغام الموسيقى الصادرة:

ـ ولك أخي.. لماذا ترقص على الدوام؟

شتمه القروي شتيمة قوية.

ـ «أنا أرقص على كيفي ها.. أرقص»

قال الموظف دون أن يتحرك من مكانه:

ـ فعلاً.. لماذا تقفز هكذا؟

قال القروي:

ـ أنتما عميان..؟ ألا تريان الدب؟

أطلق العامل والموظف قهقهة كبيرة، لأن القروي لم يكن ممسكاً بالدب. والدب لم يكن قبالة القروي يرقص معه.. لأنه خلص أماميتيه من يد القروي وهرب باتجاه الغابة. أما القروي فكان قابضاً على فرعين صغيرين من الشجرة. ظاناً أنهما مخلبا الدب.. وكان يرقص دون توقف مع الموسيقى الصادرة من الحاكي. على أن الدب يرقص معه.

عندما علم القروي بهروب الدب سقط تحت الشجرة مغمياً عليه.

١٥

واقيات تهبط من السماء

الإعلان: «هل هي صناعة..؟ أم تجارة؟ هل لها فوائد أم لها أضرار؟ في الأوقات التي كانت تُناقش فيها هذه الأمور.

كانت جمعية المعلنين قد عقدت اجتماعاً موسعاً في أوسع صالة لأحد الفنادق ذات الخمس نجوم».. والهدف من هذا الاجتماع منافسة الإعلان. دون التطرق لمدى نفعه أو ضرره للمجتمع.. قالوا أن المؤيدين للإعلان والمعارضين، له سيشتركون في المناقشات. حتى الحكومة أيضاً. بما أن لها دراية واسعة بالشفافية.. فعلى المعلنين. أن يكونوا شفافين ضعفي الحكومة. وكما أن هناك فئات ترى في الإعلان خروجاً عن الأخلاق.. فهناك فئات أخرى ترى فيه، بحر من العلم ليس إلا. ولهذا حضر هذه الاجتماعات علماء الأخلاق والاجتماع والآداب حتى بعض أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات.

كما أن السياسيين شاركوا مجبرين في هذه المناقشات عن طريق الصحف التي كانت تحاور بعضهم حول خصوصية الإعلان. كانوا يسألون الوزراء، حتى رئيس الوزراء «ما هو رأيكم بالإعلان؟ هل هو من وجهة نظركم مفيد للمجتمع أم مضر.؟» فيأتي الجواب الذي أعطاه السيد رئيس الحكومة آنذاك.. مع الأسف لم يفهمه شعبنا الذكي. فقد كان جواب رئيس مجلس الوزراء، وهو الخبير والسياسي المحنك رداً على أسئلة الصحفيين إن الإعلان بالنسبة إليه له فوائد كبرى. وربما تكون له أيضاً

مضار.. يعني يكون الإعلان صناعة وتجارة في آن واحد. أو لا يكون أياً من الإثنين.. هذه النظرة تختلف وفق زوايا الفهم عند كل فرد لنقل: أن سكرتيرة صعدت سلماً لتأخذ ملفاً عن أحد الرفوف. فإذا نظر المدير إليها من زاوية مقدارها خمس وأربعون درجة من الأسفل إلى الأعلى يستطيع رؤية سروالها الداخلي طبعاً إذا كانت تلبسه.!

وإذا نظر إليه من الأعلى بدرجة ضيقة يرى ماركة «سوتيانها» طبعاً إذا كانت تلبسها، وإذا نظر إليها وجهاً لوجه يراها طبيعية جداً دون عيب. والإعلان شيء من هذا القبيل. وفائدة وضرر الإعلان مرتبطان بالقارئ صاحب المصلحة أو المتضرر وهو وحده من يجد مقدار النفع أو الضرر بالنسبة له ويتعلق بوجهة نظره التي يفسره حسبها.

زادت حدة المناقشات، كلياً بعد التصريح الذي أدلى به رئيس الحكومة، والذي رأى فيه البعض كفاية، بينما لم تر فيه المعارضة شيئاً على الإطلاق، إنما كلام سفسطائي ليس إلا. ومن هذه المناقشات العلنية اتضح أنه لا أحد يفهم الإعلان، سوى المعلنين، وبدأت بعض الفئات المثقفة من شعبنا يتحدثون عن الرموز التي توظف من أجل الإعلان.

وهذا الإدعاء بحد ذاته صحيح ويستحيل على أحد انكاره. فمثلاً.. المعامل التي تنتج البراغي.. كي تعلن عن إنتاجها.. تبحث عن فتيات جميلات.. عاريات.. فما علاقة البرغي الجيد والمتقن الصنع بالنساء العاريات؟.. لنترك البراغي جانباً.. حسن.. لماذا يوظفون صور النساء العاريات في الإعلان، عن خبز السمون، لماذا تستعمل النساء العاريات كرمز دعاية السمون؟ أما المعلنون فيدافعون عن أنفسهم.. قائلين بأنهم يضعون صور الشباب في الإعلان عن بنطال خاص.. فيظهر الشاب راقصاً وقد فتح ساقيه. وهناك الكثير من الناس ممن يتذوقون المنظر.. وهذا بحد ذاته خدمة يقدمونها للمجتمع حسبما يدعون.

عقدت نقابة المعلمين الاجتماع الذي نحن بصدده.. بجدية وعلمية بالغتين. وفي نهاية الاجتماع جرى عرض للأزياء.. حيث قامت بعض الفتيات بعرض أزياء بعض مايوهات للصيف المقبل.. في أكثر أيام الشتاء برداً وكانت غالبية المشاهدين من الرجال نسبتهم أربعة وتسعون ونصف بالمائة من الحضور. ولم يحدث أي شيء يعكر صفو الاجتماع.. سوى بروفيسور واحد أصيب بخناق صدري.

وتمت مناقشة بعض الأمور الهامة.. في جو خلا من المعارضين للإعلان سوى لبعض الأمور. كيف يتم الإعلان عن بضاعة لا تساوي شيئاً بأسعار باهظة.. وكذلك عن بيع المواد المضرة للإنسان وخاصة الأدوية على أنها أدوية ذات فوائد عالية وبأسعار مرتفعة. وأعطوا مثالاً عن المعلن الأمريكي مستر «جون بترسون».. الذي اشترى دواء بسيطاً لمعالجة الباسور.. ووضعه في عبوات جميلة.. وباعها للنساء على أنها كريم للوجه يمنحهن الجمال والرونق والنعومة وكيف ربح الملايين من هذه الصفقة التي تعد الأولى بالنسبة له والتي كانت مصدر رأس ماله الضخم. ثم ما فعله بعد ذلك عندما وضع بعض الطيب (المسك) ضمن عبوات مليئة ببعر الجمال والأرانب. على أنها أدوية وكريم وجه. وكيف تدافعت النسوة لشراء هذه العبوات.

كل هذه الأعمال سببها الإعلان طبعاً. وتم في الجلسة أيضاً الدفاع عن المعلنين ومحاربة المعارضين. كما تحدَّث خبير إعلاني كبير عن المعاجين (جمع معجون) التي تباع على أنها تقوي الناحية الجنسية. وما هي إلا عبارة عن أدوية خاصة للغثيان، وبعض المشروبات العادية ويجب أن لا يثق الإنسان بهذه الإعلانات، ولا بهذه المواد وشرح للجميع أنه شخصياً جرَّب كل هذه الأدوية ولم يجد فيها نفعاً.

وقُدِّم في الاجتماع بعض الإحصائيات «كما قدَّم أحد البروفسورات»

بعض الدلائل على أنه في بعض الدول الأكثر تقدماً وبفعل الإعلان، يقدم الناس على شراء حاجيات غير ضرورية بالتقسيط. ووفقاً للأدلة التي قدمها. الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر أكثر الدول تقدماً وحضارة في العالم. غالبية سكانها وبنسبة خمس وثمانون بالمائة والذين لا يعرفون متى سيموتون كانوا يشترون لوازمهم بأقساط تمتد إلى عشرين عاماً. وربما تكون منقولة أو غير منقولة. أي أنهم يدفعون ثمن ما يحصلون عليه بعد عشرين عاماً. أي أنهم سيدفعون آخر قسط عليهم بعد عشرين عاماً. وربما يدفع الورثة قسماً من هذه الأقساط. أما النسبة الباقية من الشعب الأمريكي. فكان يأكل ويصرف ما هو ثمنه بعد عشر سنوات أو خمسة عشر عاماً.

في هذا العمل يأتي بعد أمريكا، الألمان ثم الإنكليز.. فالفرنسيين.

هكذا يصبحون في المستقبل بسبب الإعلان أو الدعاية أو...

أقدمت إحدى النساء الألمانيات وهي ربة منزل.. وبتأثير من الدعاية على شراء الأدوات المنزلية بالتقسيط لمدة خمسة عشر عاماً عساها ولعل تحتاجها مستقبلاً.

لم تستعمل ولو مرة واحدة أيا من المتاع الذي اشترته. وامتلأ المنزل به ولم يعد يتسع شيئاً فحاولت بيع الأمتعة. ولكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً لأنها لم تعد مرغوبة قبل أن تنتهي من دفع الأقساط المتراكمة عليها، فاضطرت إلى شراء بيت واسع.. ووضعت فيه ما اشترته مؤخراً. أما الأمتعة الأخرى.. فكان مصيرها حاوية النفايات. وأسرعت إلى المحلات التجارية لشراء بديلاً عنها. من هذا القبيل أي من حيث معيشة المستقبل منذ الآن، لا تعتبر تركياً حسب كتابات بعض الصحف.. في حالة مزرية، فنحن أيضاً نعيش المستقبل من خلال الحاضر، ولا نختلف عن أمريكا أكثر من رأس حصان. لقد قال أباؤنا الأولون «من يأكل بالدَّين تناله

الفائدة» «فالدين عصا الأقوياء». لقد تحملنا الكرباج على مدى تاريخنا لنأخذ مكاننا بين حضارات العالم.

لماذا كانت كل هذه الحوارات الكتابية والشفهية؟ تدور حول شركة. تريد استيراد سراويل خاصة بنطال «كود» لقد فكّر صاحب الإعلان الذي يرقص فيه شاب عاري الساقين.. بإعلان جديد.. ولأن الدعاية معناها.. الإبداع. فإن المعلن الذكي.. القوي.. يجب أن يستلقي فوق الأعشاب يراقب النجوم والقمر ويبدع ويبدع. كما أن كلا من الدعاية أو صاحب الدعاية.. كلاهما فنان مبدع.. وهكذا بادر إعلانيٌّ كبير إلى خلق شيء جديد.. لمستورد «البنطال كود».. فجاءت الفكرة.. ستُلقى آلاف البناطيل من الطائرة فوق مجموعة كبيرة من البشر.. الذين سيتدافعون إلى المتاجر لشراء هذا النوع من اللباس.

ومع أن هذه الفكرة ليست لكاتب الإعلان نفسه.. إنما استوردها من أمريكا.. حيث أنه لا فرق عندنا بين خلق الفكرة أو سرقتها.. ولما كان تطبيق الإعلان يقتضي استئجار طيارة لرمي آلاف البناطيل من الجو. فهذه القصة بالذات أطلقت أفواجاً من القيل والقال في الأجواء. المدير العام فقط هو من يستطيع استئجار الطائرة، ولا يحق لغيره. وبعد مناقشات طويلة حول الاستئجار..كاد المدير العام أن يعلن عن الاتفاق.. لولا المشوشين.. ورافعي الأعلام السوداء.. وواضعي الماء على الطعام الناضج.. والذين يسوقون الحمار نحو الأكمة المرتفعة: وبخاصة المخربين.. وحول هذه المسألة أيضاً بدأت الانتقادات تنصب من اليمين واليسار.. ومنها انتقاد جاء من خبير فيزيائي. في البدء ظن الجميع أنه طلب رشوة لأنه وجدها قليلة لم يرض بها. ومهما حاولوا الحصول على موافقته، إلا أنه كان يرفض بشدة. .. فسألوه عن سبب موقفه هذا وعن مطالبه.. فكان يدعي.. أن القطعة التي ترمى من الفضاء ستهبط إلى الأرض بضعف وزنها وهي في الهواء. وهذا يعني أنهم لو ألقوا بنطالاً من على ارتفاع

سبعة آلاف متر. بوزن ١ كغ.. ووصل إلى الأرض واصطدم بشخص ما، سيقتله حتماً.

أما المدير العام الذي عارض هذا الإدعاء.. كان يقول «نحن نحترم الفيزياء والكيمياء إلى أبعد الحدود.. وقانون الجاذبية.. وهو أخونا في الدنيا والآخرة.. ولكن مثل هذه الدعايات تقام في أمريكا وبشكل واسع ولم نسمع بمقتل شخص واحد جراء اصطدامه بالبنطال».

لكن مشكلة فيزيائية ظهرت في الأجواء.. ولم يكن أحد يريد تجاهلها. فالقوانين الفيزيائية ليست قوانين الديموقراطية. وعليه تم سؤال الشركة التي اشتروا منها السراويل.. في أمريكا: كيف تم إلقاء البناطيل من الطائرة دون أية حوادث.. فجاء الجواب: ارموا البناطيل لوحدها دون علبها.. فينتفخ جسم البنطال وتزداد مساحته مع الهواء..

كان المدير العام محقاً فيما يقوله: هنالك فوائد كثيرة جراء رمي البناطيل من السماء: وليت عمال المخابز يرمون الخبز من السماء على غرار البنطال. وكذلك الشكولاته والأحذية. هذه الدعاية فيها خدمة اجتماعية لشعبنا. وسيعتاد هذا الشعب الاقتراب من بعضه والتفاهم والوحدة الوطنية جراء هذا الإعلان.. يعني أن هذه الفكرة لها فوائد لا تعد ولا تحصى.

ثم إقرار الفكرة.. وبدأ الإعلاميون.. ينتظرون يوم وساعة رمي البناطيل من السماء.. لأن هذا الأمر وثيق الصلة بمجال عملهم.

في الساعة السادسة عشرة من بعد ظهر يوم أثنين غير ماطر من فصل الخريف. تم الإعلان في الجرائد والإذاعات والتلفزيونات.. عن مكان وتاريخ ويوم وساعة إلقاء البناطيل من السماء على النحو التالي.

«نداء إلى شعبنا الكريم.

في أول أثنين من شهر أيلول وفي الساعة السادسة عشرة.. ستقوم الشركة الفلانية بإلقاء عشرات الآلاف من البناطيل من ماركة

«UMMH» من الطائرة. ونعتبر هذا العمل خدمة دون مقابل لشعبنا الكريم والجميع يستطيعون الاستفادة من هذه الفرصة.

أخذت الدعاية اهتماماً أكثر من كل التوقعات فقد بدأت الحشود الهائلة من البشر تتوافد منذ الصباح الباكر إلى الساحة التي سترمى فيها البناطيل. وذكرت بعض الصحف أن عدد الحضور يقدر بمئات الألوف. كانت الشوارع قد أقفرت والأحياء أغلقت.. وتوقفت حركة السير ذهاباً وإياباً. والجماهير حشرت نفسها في تلك الساحة.. حتى أن البشر أصبحوا كتلة متراصة مثل عقدة عمياء لا تنفك عراها.. ارتفعت الأيدي عالياً لالتقاط البناطيل التي ستنزل. واتجهت الوجوه والعيون والأفواه نحو السماء أيضاً. وسمعت أصوات وصرخات «إنها قادمة إنها قادمة». فتماوجت الجماهير المحتشدة.. وتداخلت أكثر مع بعضها. ثم ساد صمت مطبق على المكان. لأن القادم لم يكن البناطيل.. بل كان سرباً من الغربان.. التي أخافتها صرخات الجماهير فغيَّرت اتجاهها.

الساعة جاوزت السادسة عشرة.. لم تكن البناطيل قد ألقيت بعد. وُسمع أزيز قوي في السماء.. لم يعرف ماهيته أحد. وأطبقت الأكف المفتوحة. وبعد خمس عشرة دقيقة ظهرت الطائرة، فوقف الجميع على رؤوس أصابعهم لالتقاط البناطيل. أو بنطالاً واحداً على الأقل أو ليقفز في الهواء كي ينال نصيبه.

فحدثت موجة أخرى من التدافعات الجماهيرية. ولم يمت أحد كما ادعى الخبير الفيزيائي. لكنه لو حصلت حادثة وفاة واحدة. لكان ذلك خيراً لهذه الدعاية.. جرت عدة حوادث.. فجرح بعض الناس جراء التدافع الشديد.. وتكسر الزجاج الأمامي لبعض السيارات الواقفة هناك والمرايا الجانبية وحوادث أخرى صغيرة.. لقد سقطت بعض البناطيل فوق أسطح المنزل وعلى الشرفات وأعمدة الهاتف والكهرباء فأسرع من

يستطيعوا التقاط شيء. إلى تلك الأماكن لأخذ نصيبهم. فتمزقت ألبستهم أيضاً.

وحسب ادعاءات البعض أن واحداً بالمائة فقط من الموجودين استطاعوا التقاط بناطيل. أما الباقون فكل واحد منهم أضاع شيئاً هناك. أثناء التدافع والعراك.. هذا ساعته، وذاك محفظته، وآخر قداحته وبعض الأشياء الأخرى.. وكان شخصان قد التقطا بنطالاً واحداً وأمسك كل منهما بساق.. وبدأا بالشد حتى تمزق البنطال وصار مع كل منهما النصف.. ولم يعط أحدهما النصف الثاني إلى الآخر. وهكذا تحققت العدالة بينهما وحمل كل منهما نصفه إلى منزله.

كان نجاح دعاية رمي البناطيل من الطائرة مقبولاً نسبياً، ولكنها لم تتكرر إلا بعد زمن طويل. عندما طلب أحد المستوردين «للواقيات الذكرية» من الإعلامي أن يطبق الإعلان على بضاعته. يدفع المال.. ويجعل الواقيات تهطل من السماء.. لكن ما حصل هو أن شركة الطيارات.. امتنعت عن تأخير طائرتها بعد حادثة البناطيل. مع أن المادة صغيرة وناعمة ولا تتسبب بأية خسائر على الأرض.. ولا تكسر زجاج السيارات ولا المرايا الجانبية ولا تقتل الناس.. ومع هذا امتنعت الشركة عن ذلك ربما لو كان شيئاً آخر لقبلت. أما من أجل الواقي الذكري فلا؟.. وهكذا تتضح فوائد.. الاقتصاد الحر.. والسوق الحر والاستثمار في القطاع الخاص. هذه المرة استأجروا طائرة مروحية من إحدى الشركات الخاصة. وتم الإعلان عن طريق الصحف والمجلات والإذاعات والتلفزيونات. فجاء الإعلان كما يلي:

«نداء هام إلى جمهورنا الكريم.

استعملوا الواقي الذكري الناعم المتين من ماركة «SEX - IK» لتقوا أنفسكم من مرض الإيدز والأمراض الزهرية.. ولتحافظوا على برنامج

تنظيم الأسرة.. الماركة موجودة في الأسواق. ومن جميع القياسات وتناسب الكبير والصغير. وستقوم الشركة بإلقاء ملايين الواقيات من طائرة مروحية في الساعة الفلانية وذلك في الأول من تشرين الأول الساعة ١٤,٣٠ بعض الظهر وكل مواطن حر في التقاط ما يشاء من الواقيات.. واحتفظوا بأرقام العلب التي تحتويها حيث ستقوم الشركة بإجراء سحب للأرقام الفائزة أمام الحضور.. وستقدم للرجال المحظوظين.. نساءً جميلات ليجربوا واقياتهم.. أما النساء المحظوظات فسيهدين شيئاً ما.. حالفكم الحظ جميعاً.. هيا إلى التقاط الواقيات».

حادثة فريدة من نوعها جرت في مجال الإعلام.. عندما كانت مبيعات الصحف تنخفض باستمرار وبشكل غير متوقع.. في نفس اليوم الذي تم فيه الإعلان.. تحركت أسواق بيع الجرائد بشكل مثير حيث وصلت إلى ثلاثة أضعاف بيعها العادي. واستمرت في تزايد.. إلا أن الجرائد فقدت من الأسواق. أما الجرائد الأخرى التي لم تعلن فيها أخبار الواقيات.. فقد واجهت مبيعاتها هبوطاً كبيراً.. فاتصل أصحابها بمسؤول الإعلان وأنباء الواقيات وطلبوا منه.. أن يعلن عن الواقيات مجاناً في صحفهم. وبعد عدة أيام قدَّم صاحب الواقيات إلى أصحاب الجرائد اقتراحاً.. وكان فريداً من نوعه في تاريخ الصحافة كلها، إذ لم تكن الشركة راضية عن الإعلان الذي تقوم به الجرائد. لأنها كانت تريد نسباً من الأرباح التي كانت تجنيها من جراء الإعلانات على صفحاتها. وصارت الشركة تأخذ أرباحاً من صحيفتين.

استمرت هذه المقايضة العكسية.. «أن تعلن وتدفع المال لصاحب الإعلان» حتى هطول الواقيات من السماء.

عندما كانت الساحة مزدحمة بشكل عجيب. وبما أنه لم تحدث أية مشاكل كما حصل يوم هطول البناطيل.. فقد كتبت الصحف. «مرَّ

هطول الواقيات دون أية حوادث» وكتبت بعضها «اليوم هطلت الواقيات من السماء.. الشكر لله لم تحدث أية حادثة».

جرى هطول الواقيات بشكل منتظم وسليم. فالأطفال الصغار والعجائز والجدات والأجداد.. كلهم تدافعوا لالتقاط الواقيات.. أجابت إمرأة مسنة عندما سألها أحد المازحين «ماذا ستفعلين بها» فأجابت أنها ستعطيها لصهرها زوج ابنتها.

كانت الواقيات تتساقط على الأرض كالفراشات نظراً لهبوب بعض الرياح القوية أحياناً.

وباختصار نجحت التجربة وهطلت الواقيات بنجاح مثل البناطيل. إلا أن هطول الواقيات لاقى إقبالاً شديداً. ولكن الذي حصل، أن مبيعات الجرائد التي تدفع المال وتعلن عن البضاعة.. بدأت بالهبوط فجأة. وظلت تهبط يوماً بعد يوم وباضطراد. وأحس أصحب الجرائد بخيبة الأمل.. واحتاروا بأمرهم ماذا يفعلون؟

فلو استمرت الحال بالهبوط ردحاً من الزمن لأفلست الصحف كلها.

لم تثمر أقوى الجهود في وقف هذا الهبوط الحاد في المبيعات.. وصار أصحاب الجرائد يعلنون عن هدايا قيمة وكوبونات.. وسيارات.. وغيرها، إلا أنهم لم يستفيدوا شيئاً. فذهب إعلاني مشهور إلى صاحب جريدة مشهور وغني ويمتلك عدة جرائد ومجلات. كانت إحدى جريدتيه تصدر بالألوان، أما الأخرى فكانت جدية وعادية على الدوام. وكانت الجريدة الملونة تصدر صوراً لرجال على صفحة ولنساء عاريات على الصفحة الأخرى تحت رمز (الأرنب).. وكان يربح الأموال الطائلة وبشكل خجول جداً.. ولكي يسترعيه الأول لجأ إلى إصدار جريدته الأخرى.. الجدية جداً.. لكن بعد حادثة الواقيات تدنت مبيعات الجريدة الملونة.. في هذه الأيام العصيبة بالذات جاء الإعلاني الكبير وتقدم

باقتراحه لصاحب الجريدة. وكان كالتالي: وهو أن يعطي كل من يشتري جريدة واقياً مجاناً.. ودون «كوبون».. وبذلك لم تهبط مبيعات الجريدة مرة أخرى أبداً. وستزداد أربعة أضعاف على الأقل.

عرف صاحب الجريدة أن رد الاقتراح يجبر الإعلاني للذهاب إلى جريدة أخرى.. حتى أن الإعلاني لم يطلب مالاً. بل حصة من أرباح الجريدة.. في حال ازدياد المبيعات.. فوقعا على اتفاق خطي.

نجحت الخطة.. وارتفعت مبيعات الجريدة إلى خمسة أضعاف. كان البعض يشتري ثلاث وأربع جرائد في اليوم الواحد. ليس لقراءتها بل من أجل الواقي.

زيادة مبيعات هذه الصحيفة.. حركت الصحف الأخرى وأصبحت كل صحيفة حرة في توزيع عدد غير محدد من الواقيات لقرائها. لأنه والشكر لله. حرية الصحافة مصانة. فبدأت كل صحيفة تستورد الواقيات من بلدان مختلفة وتوزعها على قرائها مجاناً.. كانت المبيعات تزداد باضطراد.. عكس التوقعات.. كان عدد المشترين أكثر من القراء والكتاب.

كانت إعلانات الجرائد فعالة جداً ومؤثرة

«لكل جريدة واقٍ.. ومع كل واقٍ جريدة»

«قراءنا الأعزاء.. واقياتنا فعالة.. ومتينة... فقط تحملوا أنتم»

«بمناسبة.. برنامج الأسرة.. وداعاً لإنجاب الأطفال»

«واقياتنا رقيقة جداً.. ولا تشعر بها إن كانت موجودة أم لا» وإعلانات كثيرة من هذا القبيل.

بعد ازدياد استعمال الواقيات.. توقع الجميع تدني الولادات.. وما حصل جاء عكس ما يتوقعون.

سابقاً كانت نسبة تزايد عدد السكان ١,٢٪ وواحد من عشرة وبعد استعمال الواقيات أصبحت ٤٪ فبدأت الوزارات تصرخ هنا وهناك.

«حاجة بقى ولا.. اقطعوا هذا الشيء..»

لم تقوَ الحكومة رغم قدرتها على إيقاف هذا التوالد، ولم نتوصل إلى معرفة سبب الزيادة مع استعمال الواقيات.

بعد توزيع الجرائد للواقيات المجانية.. ظهرت بعض الإعلانات على صفحات الجرائد:

«إلى قرائنا الأعزاء المحترمين..

بدأت أسعار جرائدنا ترتفع بسبب ارتفاع سعر المادة الخام للواقيات التي انعكست سلباً على أسعار جرائدنا. اعتباراً من الغد ستباع جريدتنا بعشرة آلاف ليرة.. وسنحافظ على إمداد قرائنا بالواقيات.. نظراً لأهميتها العظمى بالنسبة لنا.. جريدتنا تنتظر منكم أن تستقبلوا قرارنا هذا برحابة صدر».

١٦

هل تقول جوع جنسي؟

بكل تأكيد هنالك أناس كثيرون.. في مختلف مجالات الحياة. أو ممن يمارسون أعمالاً متنوعة يمكن وصفهم بذوي الأفواه النتنة، أو الألسنة الوسخة، رجالاً كانوا أم نساءً..

هنالك سيدات معروفات كثيراً ومشهورات من الطبقة الأرستقراطية، لا يستطعن التحدث بكلمتين جادتين مهذبتين متتاليتين. فتنحرف ألسنتهن ويبهرون أحاديثهن بالسباب والشتائم، وتصدر عنهن شتائم يستحيل استعمالها بين النساء. فمع كل كلمتين يطلقن كلمة بذيئة. وهذه الألفاظ تلقى استحساناً وإعجاباً كبيرين في بعض المجتمعات الراقية وبين الطبقات الموسرة.. يطرب لها بعض الرجال ويطلقون القهقهات العالية.. فتندفع بطونهم إلى الأمام أو تشمخ أنوفهم نحو الأعلى.

هذه العادات «الشتمية».. عند النساء أو عند الرجال لا يمكن تصنيفها ضمن إطار واحد، لأن هناك فرقاً بين شتيمة وشتيمة. كما يجب التمييز من نسميهم بالشتامين. هنالك من يشتمون مباشرة بل ينذرون الآخرين قبل شتمهم. فمثلاً عندما يعتريهم الغضب.. يقولون «انتبه بسبك مسبة قوية هاه».. وآخرون متقصدون إثارة محدثيهم كي يشتموهم. إذن فكما أن هناك أناساً يرتاحون عند تفوههم بالسباب والشتائم. هناك آخرون.. يفرحون عندما توجه إليهم، والبعض قد تصل إلى رؤوس ألسنتهم ولكنهم يعفون ويقولون: «المسبة وصلت إلى رأس لساني. ولكن تمالكت نفسي».

وهناك من يشتمون عندما الموقف يستدعي الشتيمة. أي أنهم لا يشتمون كثيراً.. ولكنهم عندما يريدون إيذاء الغير يصبون عليه شتائمهم القاسية. أما الذين يطلقون سبابهم وعلى الماشي.. فلا يسلم أحد من شتائمهم لا الأم ولا الزوجة. ولا أي شيء. فمثلاً عندما يقوم الأطفال بشتم بعضهم. نراهم لا يتحملون شتم الأم كتحملهم شتيمة الأب. ويقولون: «لا تدخل أمي في الموضوع». أما عندما تصدر عن بعض النساء وخاصة المثقفات بعض الشتائم التي تتناول الأم أو الزوجة. أي أنها تنال إعجاباً لدى بعض الرجال. سألت أحدهم.. لماذا يعجبك سباب المرأة المثقفة الأرستقراطية.. فقال: في شتائم المرأة جاذبية جنسية.. ويقول بعض العارفين.. أن في صوت المرأة الذي يشبه صوت الرجال.. جاذبية جنسية أيضاً. أعرف امرأة من طبقة راقية تقذف الشتائم بالجملة.. ومن النوع الذي يعفُّ الإنسان عن ذكرها. هذه المرأة تضع كل أنوثتها أمام الرجال.

بعض أفراد العائلات ممن أعرفهم يتقززون من رؤية مثل هذه المواضيع على صفحات المجلات العائلية.. ويشمئزون كثيراً. وأقول أنني أردت الخوض في هذا الموضوع لأثبت أن شعبنا شتَّام جداً.. وإليكم مايلي:

الحادثة مثبتة وليست حديثة العهد. بل قديمة إلى حد ما. الجميع يعلمون أن هيئات علمية أمريكية تفد إلى تركيا للتعرف على شعبنا عن كثب. هذه الحادثة جرت عندما كانت البعثات الأمريكية قد انتشرت في عموم أنحاء الأناضول وتراقيا.

أحدهم كان شاباً استقدم معه زوجته وطفله الرضيع.. وبدأ بحثه العلمي في إحدى بلدات الأناضول. ومع كل بعثة علمية طبعاً.. مترجم.. كانوا يبحثون عن مربية لتعتني بالطفل الرضيع. طبعاً بمساعدة المترجم. واستطاعوا التوصل إلى شخص هناك تعلم أثناء خدمة العلم كيفية الاعتناء بالأطفال.

سأله الأمريكي عن طريق المترجم:

ـ هل تستطيع الاعتناء بطفل عمره ثمانية أشهر؟

أجابه الشاب بالتركية طبعاً..

ـ شو الاعتناء نعم أعتني به وأعمل بأمه كذا وكذا. هنا أحاول قدر الإمكان أن لا أدخل الكلمة التي قالها الشاب.. كي لا أفسد أخلاق القراء.. طبعاً لم يكن في نية الشاب أن يفعل ذاك الشيء لأم الرضيع. وكما نطق بلسانه.. لكنه قال هذا، وكأنه يريد القول للأمريكي: أنا أعتني بطفلك جيداً.. وطبعاً المترجم هنا.. يقوم بواجبه ويترجم ما قاله الشاب أنا أعتني بطفلك جيداً.

وبما أن الأمريكيين توصلوا إلى فهمنا لأنفسنا.. ولم يبق في البلد شيء خافياً عليهم.. انقطعت هذه البعثات والهيئات.. إلى تركيا في الوقت الحاضر.

هؤلاء الأمريكيون.. ليست لديهم أية نية سوى خدمة الشعوب الأخرى.. باشروا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بإرسال الهيئات والبعثات العلمية إلى تركيا. كان تعليم ألف باء التركية للبالغين مكلفٌ وصعب.. ولم يكن عدد المتعلمين آنذاك كما هو الآن. ستجهز كتاباً للبالغين الأتراك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة. وكان للهيئات أسلوبها الجديد والخاص بها، فيأخذون الكلمات الأكثر استعمالاً لدى المواطنين ويضعونها في الكتاب. واتبعوا هذا الأسلوب في الشرق وجنوب شرق أسيا. ونجحوا في ذلك ليس كما هو الحال الآن عندنا.. حيث وضعوا كتب التعليم جملاً لا يدرك الأطفال معناها.. فالطفل الذي لم يذق طعم العسل أبداً.

يضعون له جملة «بابا اشترى لي عسلاً» أو «آتا آوت آت» يعني ارم الحشيش للحصان. نحن لم ندرك ضرر مثل هذه العبارات.. ولكن الأمريكيين كانوا يعرفون.

لهذا قامت الهيئة التعليمية الأمريكية.. ولكي لا تقع في مطبات لغوية كما وقعنا نحن.. باستخدام أسلوب جديد خاص بها.. كان علماء التربية والتعليم منهم يجولون الولايات والمناطق والنواحي.. الشوارع والمقاهي والحارات.. وسائط النقل. باحثين عن الكلمات المستعملة والجمل السهلة.. ليضعوها في الكتاب كي يقرأها البالغون بسهولة.. صُنعت مئات الأشرطة.. وأمضت البعثة شهوراً طويلة في عملها.. حسنٌ والنهاية؟ وفي النهاية لم يؤلفوا الكتاب ولم يقوموا بتجهيزه.. هل تقول لماذا..؟ لأن الإنسان التركي. كان لا يستطيع التحدث دون استعمال الشتائم.. في البيوت والحارات والمقاهي.. وفي أي مكان: وعلى رأس هذه الشتائم «بدي أوضع لأمك» (من كلمة الوضع) مثل وضعت لأمك أو لأختك. حتى الأطفال الصغار كانوا يبدأون الحديث بهذه الكلمات البذيئة. فعندما يلتقي شخصان عند الصباح ويسلمان على بعضهما يستعملان مثل الجمل:

- صباح الخير ولك اللي وضعت بأمك.

فيجيبه الآخر بتحية أفضل منه.

- صباح الخير اللي عملت لأختك..

قبل كل كلمة وفي وسطها ونهايتها.. كلمة «وضعت».. هذه الكلمة لم تكن خاصة بالرجال البالغين فقط حتى النساء والأطفال كانوا يستعملونها. والشباب الذين يطلبون من أمهاتهم.

- ولك أمي أعطني ماء.. وكان الطلب ينتهي بتلك الألفاظ البذيئة.

وهناك ألفاظ أخرى كثيرة. ولكن أكثرها شيوعاً كانت الكلمة التي مرت معنا. وهكذا فشلت الهيئة التعليمية الأمريكية في وضع كتاب لتعليم الأميين.. ولم تنجح كنجاحها في دول شرق آسيا.

طبعاً.. البعثة التعليمية الأمريكية لا يهمها إن تعلَّم الشعب أم لا! فإذا كان الشعب التركي لا يتحدث إلا بالسباب والشتائم.. فما ذنب البعثة.. كما أن الأتراك أيضاً وجدوا وضع تلك الكلمات معيباً جداً.. نعم التحدث بالألفاظ السيئة والسباب ليست معيبة للتركي.. ولكنها تكون كذلك عندما تكتب وتوضع في الكتب والجرائد.

وجد المترجم صعوبة كبيرة في ترجمة كلمة العيب، لأنها غير موجودة في اللغة الانكليزية.. فصار المترجم يردد كلمة عيب بالتركية والأمريكيون لا يفهمونها وكانوا يسألون على الدوام.

ـ ما معنى عيب؟

حاول المترجم وبشتى الوسائل لتوصيل معنى العيب للهيئة التعليمية الأمريكية.

ـ العيب معناه.. أن يتحدث الأطفال أمام الكبار.. أو أن يضع ساقاً فوق ساق أمامهم.

ـ فيعاود الأمريكيون السؤال بسبب عدم فهم معناها. ويقولون:

ـ أريد أن أطرح أمام الكبار عيب يعني؟

ـ كلا ليس هذا فحسب.. التحدث بصوت عالٍ عيب.. العطس بصوت عالٍ عيب.. النّف بصوت عالٍ عيب.. عيب.

ـ الآن فهمت.. إذن أريد أن أطرح معناه هو إصدار حركات غير مستحبة بصوت عالٍ.

لم يستطع المترجم إفهام الأمريكيين الأغبياء.. معنى العيب بأي شكل من الأشكال.. وشرح لهم.. وفهموا أن معنى بدي أضع هو عيب. أما رجوعهم عن تأليف الكتاب للبالغين.. هو فهمهم أن الكلمات الأكثر استعمالاً كانت كلها معيبة. ولا أحد يستطيع قبول هذا العيب.. وكما

ترون؟ فإن كاتب هذه الأسطر يأنف استعمال الكلمات المعيبة.. فيضع بدل الحروف نقاطاً.

بعد وصول هذه الأمور إلى هذا الحد.. بدأت الهيئة التعليمية الأمريكية تبحث عن سبب استعمال تلك الكلمات المعيبة التي يستعملها الأتراك بين كلمة وأخرى.. وبعد الاستعانة بعلماء الاجتماع والبحث في الواقع الاجتماعي. توصلوا إلى مايلي: فقالوا.. أنه لا يوجد في تركيا جوع جنسي: ولهذا تراهم يستعملون الكلمات المعيبة ويضعونها في أول ووسط ونهاية كل جملة.

أنا لست مع هذا التعليق أو الفكرة. ولست بصدد أن أضع فوق رأي وعقل كل تركي شيئاً ما. فالأجانب سيظنون أنني أدافع عن الأتراك كوني تركياً.. وهذه الكلمة كانت بمثابة مفتاح الكلام عندنا ليس إلا. وليس بسبب الجوع الجنسي. مثلاً عندما يقول الأب لابنه «ولك ابني أعطني سيجارة من هنا بدل أعمل...» لا يفكر بمعنى تلك الكلمة.. وإذا لم يقلها لا يعتبر نفسه أنهى كلامه أو طلبه. كنت قد ذكرت أن أناساً كثيرون ومن فئات مختلفة يسبون ويشتمون. ولكن السباب لدى بعض رجال الأعمال أمر معيب ولا يليق بمقامهم أو هكذا يُظن. أما إذا كان الإنسان معتاداً على ذلك في طفولته.. ماذا يفعل القاضي.

هناك رجل قانوني.. حاكم أو قاضي ترعرع ونشأ وسط الأناضول. أصبح رئيساً للمحكمة الجزائية العليا. كان هذا القاضي يشتم على الدوام وهي عادة تأصلت فيه منذ طفولته. ومن محاسنه أنه لم يكن يطلق شتائمه جزافاً.. ولكنها كانت تأتي في الأوقات المناسبة جداً.. كانت له شتائم خاصة. ومع ذلك لم يكن السامعون يتأففون منها. وفيها إحساس ومعنى معين.

سأروي لكم الآن قصة محاكمة حضرتها.. لهذا القاضي قبل إحالته

إلى المعاش بزمن قصير. الماثل أمامه كان قاتلاً يصعب إصلاحه.. دخل السجن وحكم عليه مدة ٢٤ عاماً. لأنه قتل زوجته وحماته.. وأخت زوجته. وفي السجن قتل شخصاً آخر.. وبعد فترة أفرج عنه من جراء عفو عام.. وبعد خروجه بفترة قصيرة قتل أخته وصهره.. هذا القاتل ذو تفكير خاص وعقلية فريدة. كان يعتقد أنه بريء من كل هذه الجرائم. وأن المغدورين يجب ن يُقتلوا.. وكان يمني نفسه ببراءة.. أو بحكم مخفف.. ولشدة قناعته بنفسه رفض توكيل محام ليدافع عنه.

كانت الجلسة الأخيرة. والهيئة على أهبة إعطاء قراراها الأخير.. والقاتل كما في كل مرة يعتقد أنه سيبرَّأ. وأنه محق بما قام به.

حتى أنه جهز نفسه كي يصرخ «تعيش العدالة» بعد أن يذكر القاضي قرار إخلاء سبيله.

وبما أنها دعوة غريبة.. فقد غصّت المحكمة بالحضور ولكثرة الازدحام. كان الحاضرون يقفون صفوفاً متراصة في الممرات. دخل القاتل والأصفاد في يديه.. يقوده عنصران من الشرطة. فك الشرطي القيد من يده ودخل القضاة واستقروا في أماكنهم على القوس. وبعد أن أبلغه القاضي حقه في الاستئناف وأشياء.. بدأ بتلاوة قرار المحكمة.

المتهم مذنب.. بدلائل ثابتة.. ويحكم عليه بالإعدام. كان الصمت مخيماً على القاعة. وسمع صوتاً كان صوت تكسير القلم من قبل القاضي.

سأل القاضي المتهم إذا كان يريد شيئاً ما. وقف المتهم ببطء وهو الذي كان يؤمن ببراءته.. وسأل القاضي ببطءٍ أيضاً.

ـ هل توافق النيابة العامة على قرارك هذا؟

قال رئيس المحكمة:

ـ لا.. النيابة العامة طالبت بسجنك ثلاثين عاماً.

قال المتهم في هذه المرة سائلاً.

- وهل أجمعت هيئة المحلفين على إعدامي؟

أجابه القاضي العجوز بصوت حزين..

- نعم.

قال المذنب ببطءٍ أيضاً:

- إذن.. لنضع النيابة جانباً. أما الباقون الذين أعطوا قرارهم بإعدامي.. بدي أعمل بهم وببطن السابع من سلالتهم وزوجاتهم وأخوانهم وأمهاتهم وأطفالهم.. و و و.. أجدادهم.. جداتهم.. و و.. وأحصنتهم.. المهم لم يترك نوعاً من الشتائم إلا وشتمهم بها بشكل فاضح وبكلمات واضحة ومفهومة.

الصمت مطبق على الصالة. إذا طارت ذبابة تسمع حفيف أجنحتها. ماذا سيحدث الآن؟ لقد واجه ذلك القاضي شتائم لا تحصى. هل سيستطيع القاضي أن ينام على هذه الشتيمة وهو من اعتاد سباب الآخرين وشتمهم؟ ولا يوجد لديه حكم أكبر من الإعدام.

همس رئيس المحكمة بآذان القضاة على يساره ويمينه وكذلك الأعضاء فيما بينهم. ثم نهض الرئيس وهو يرفع طرف جبته عن الأرض.

وقال للحضور بأن الأعضاء سيعطون قرارهم بعد استراحة قصيرة. وكان أكثر من حيرهم الأمر هما عنصرا الشرطة.

عندما انسحبت الهيئة للمداولة. بدأت المناقشات ترتفع في الصالون.. ودامت بعض الوقت. عندما دخل القضاة قاعة المحكمة ساد الصالة صمت مطبق.. ووقف الحاضرون.

تلا القاضي قراره الإضافي.. ولكن هذا القرار لم يسجل في محضر قرار المحكمة:

قرار محكمتنا.. ماعدا النيابة العامة.. أعضاء المحكمة جميعهم يعملون كيت وكيت بسبع سلالات المذنب.. وبزوجته وبأمه.. وأخته . و و و.

دامت الشتائم لدقائق والقاضي يتلوها واحدة بعد الأُخرى. ولم يترك نوعاً من السباب أو فرداً من عائلة المذنب إلا وناله حتى الموجودون في المهد حتى أجياله القادمة بعد مئات الأعوام.

عندما كان رئيس المحكمة والأعضاء يتركون المحكمة.. نظرت في وجه الرئيس. فلمحت ابتسامة تعلو شفتيه ووجهه.. وكأنه إنسان مدين تخلّص من دينه لتوه.

KMH

الفهرس

إصدارات الدار الوطنية الجديدة

لن نتطور أبداً	عزيز نيسين	١٩٩٩
مجنون على السطح	عزيز نيسين	١٩٩٩
الاحتفال بالقازان	عزيز نيسين	١٩٩٩
طاقم الباندو	مظفر إيزكو	١٩٩٩
حكايتي مع الرئيس كلينتون	مونيكا لوينسكي	١٩٩٩
الدغدغة	عزيز نيسين	٢٠٠٠
صحوة الناس	عزيز نيسين	٢٠٠٠
لن نصبح بشراً	عزيز نيسين	٢٠٠٠
السجينة	ملكة أوفقير	٢٠٠٠
دنيا واحدة لعاشقين	أميت يشار	٢٠٠٠
الثقافة المقهورة والثقافة المنتصرة	محمد سعيد طالب	٢٠٠٠
وحش طوروس	عزيز نيسين	٢٠٠١
المجانين الهاربون	عزيز نيسين	٢٠٠١
ألا يوجد حمير في بلادكم	عزيز نيسين	٢٠٠١
التعتيم الفاضح	الطاهر بن جللون	٢٠٠١
ألم النكبة	فتحي كليب	٢٠٠١
العملي في طب قلب الأطفال	آلن باتيس	٢٠٠١
عشية الانتفاضة	قيس عبد الكريم	٢٠٠١
الجبهة الديمقراطية: النشأة المسار	قيس عبد الكريم	٢٠٠١
الانتفاضة والصراع العربي الإسرائيلي	نايف حواتمة	٢٠٠١
سبع نساء ورجل	راغدة خوري	٢٠٠١
زهرة عباد الشمس	راغدة خوري	٢٠٠١

توزيع

الحمار الميت	عزيز نيسين	١٩٩٦
خذوا حذركم	عزيز نيسين	١٩٩٧
ذنب الكلب	عزيز نيسين	١٩٩٨
الرجال والمشانق	عزيز نيسين	١٩٩٩
صراع العميان	عزيز نيسين	١٩٩٩



أكتب قصة حبّنا، حتى يطلّع الناس على أحوالنا ويأخذوا منها العبر. أكتب حتى يقرأ الناس ويذرفوا الدموع. خذوا ورقة وقلماً واكتبوا ما سأقوله لكم: اسمي محمود واسمها نيكار، بمعنى قيس وليلى، طاهر وزهرة.

أدخلوني قفص الاتهام، بسبب حبي الصادق، تحدثت أمام هيئة المحكمة، أبكيت القضاة، فحكموا عليَّ بالسجن والنفي.

عندما تحسنت أحوالي، رَشَّحتُ نفسي للانتخابات البلدية، جاءني قرار المنع. الأوامر تُنفذ، والممنوع يُطبّق.

لا يستطيع المسؤولون العيش دون متملّقين ومتزلّفين، ولا يروق لهم من يقول الحقيقة ويجاهر بها.

إننا نعيش المستقبل من خلال الحاضر. لقد تحملنا الاضطهاد وعلى مدى تاريخنا، من أجل أن نحتل مكاناً مرموقاً بين حضارات العالم.

قصص تحمل مآسي التخلف والتبعية على الشعوب الفقيرة..

الناشـــر

السعر ١٥٠ ل.س